الملتقى الفكري للإبداع

نهر "الأُمِّية" العذب (١)

عز الدين كزابر

٢٧ / ١ / ٢٠١٠

نـهر "الأُمِّية" العذب (١)

رغم أن الهدف المباشر الذي كنا بصدده قُبيل كتابة هذه الأسطر، كان "فض الإشكال حول دخول الشهر القمري بين الرؤية البصرية والحساب الفلكي"، وذلك في إطار تحقيق المسألة السابعة من كلام د. بوناطيرو في المقال السابق[i]، إلا أننا وجدنا أن الطريق إلى هذا الهدف السامي لا بد وأن يمر أولاً بمحطة فكرية هامة تُعنى بتحرير مفهوم "الأمية"! ... نعم، إن مفهوم "الأمية" قضية محورية في الفصل في مسألة الهلال ودخول الشهر، وينبغي تحقيق هذا المفهوم على وجه مُرضٍ، يبعث الطمأنينة في النفس بما يزول معه الاشتباه بين المعاني، أو كما قال ابن الهيثم[ii]: [لعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي به يُثلِج الصدر، ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة، التي يزول معها الخلاف، وينحسم بها مواد الشبهات].

ويعود السبب في محورية قضية "الأمية" في مسألة الهلال، إلى كونها العلة التي نص عليها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، في تبرير رؤية الهلال، دون غيرها من طرق، وذلك في تعيين دخول الشهر القمري، كما سيأتي بيانه. وبتفقدنا لهذه المحطة، اكتشفنا أن في "الأمية" الخالصة فضيلة، لمن جعلها من العلماء أساس علمه، وروح أدبه، وحُرم منها من تَعَالَى وتعالَم وأوهمته الظنون. ولم نجد من محسوسات معقولة تقترب من جميل معنى "الأمية" إلا الماء العذب، يجري به نهر رقراق، يرتاده الناس، فيرتوون، ويغتسلون، ومن جداوله يزرعون ويأكلون، وعلى ظهره يرحلون ويرتحلون، وإذا كالَبتهم الهموم، فلهم فيه جمال حين ينظرون. وإن كان ليس بالماء وحده تستقيم الحياة، فكذلك الأمية، فهي أصلٌ يُبنى عليها، وكعبة عقل يُثاب إليها، وفراشٌ وثيرٌ تسكن فيه آلام الفهم بعد طول تجوالٍ، ولجج، وجدلٍ، وخصومةٍ، في أيامٍ عاصفاتٍ من الدرس والأفكار. وإن وجدنا علماً وفكراً غير مؤسسين على الأمية، فهما كحياةٍ تأبَّت على الماء أن يكون لها أصلاً، وظنّت أن خمراً معتقاً أو عصيراً مصنّعاً، خيرٌ من ماء فراتٍ يشربه - بظنّها - كل صعلوكٍ، .. هاجعاً كان أو ضائعاً، ولم يصبح غنياً بعدُ عن الماء مستغنياً. وقد غفل عن فضيلة "الأمية" كثيرون، وكنا معهم، .. فأردنا أن يقفوا معنا على ما وقفنا عليه، مما دعانا إلى ضرورة إفراد هذا الموضوع ببحث ودراسة، فكانت هذه السطور.

علاقة "الأمية" بالأهلة:

جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "[عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين**.][iii]". فجاء النص: "**الشهر هكذا**

وهكذا..." وجاءت العلة: " **إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**". فأهمل بعض المنَظّرين – على نحو ما سنرى بعد قليل - في ذلك: "النص"، وعلّقوه بالعلة. رغم أن فائدة العلة عند فهم القياس للاعتبار وتعميم الحكم، لا عند الامتثال للنص، والذي هو أولوية مطلقة، وخاصة إذا ترافق معه نصوص حديثية شارحة لا تترك مجالاً للاختيار مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "**الشهر تسع وعشرون ليلة فلا تصوموا حتى تروه فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين**"[iv]، وهو يشرح كيفية المعالجة التفصيلية للاختيار بين التسع والعشرين أو الثلاثين، ومعلوم عند الأصوليين أن صيغة النهي "لا تفعل"[v] هنا للتحريم (وهنا: تحريم ما عدا الرؤية من استدلالات على دخول الشهر). فكيف يمكن تبرير اللجوء للقياس إذا ورد "النص" بهذا الوضوح؟! .... أللهم لا سبيل[vi]، ..

تحقيق أقوال من قدّم القياس على النص في حديث رؤية الهلال المُعلّل بالأمية:

شاهد ذلك أنْ قال أحمد محمد شاكر[vii]: [الأمر باعتماد الرؤية وحدها جاء معللا بعلة منصوصة، وهي أن الأمة "أمية لا تكتب ولا تحسب"، والعلة تدور مع المعلول وجودا وعدما، فإذا خرجت الأمة عن أميتها، وصارت تكتب وتحسب، أعني صارت في مجموعها ممن يعرف هذه العلوم، وأمكن الناس عامتهم وخاصتهم أن يصلوا إلى اليقين والقطع في حساب أول الشهر، وأمكن أن يثقوا بهذا الحساب ثقتهم بالرؤية أو أقوى، إذا صار هذا شأنهم في جماعتهم وزالت علة الأمية: وجب أن يرجعوا إلى اليقين الثابت، وأن يأخذوا في إثبات الأهلة بالحساب وحده، وأن لا يرجعوا إلى الرؤية إلا حين يستعصي عليهم العلم به، كما إذا كان ناس في بادية أو قرية، لا تصل إليهم الأخبار الصحيحة الثابتة عن أهل الحساب، وإذا وجب الرجوع إلى الحساب وحده بزوال علة منعه، وجب أيضا الرجوع إلى الحساب الحقيق للأهلة، وإطراح إمكان الرؤية وعدم إمكانها، فيكون أول الشهر الحقيق الليلة التي يغيب فيها الهلال بعد غروب الشمس، ولو بلحظة واحدة.][viii]

وقد رد ابن حجر العسقلاني على التعليل بمعرفة الحساب في التوقف عن الرؤية وقال رحمه الله تعالى[ix]: [المراد بالحساب هنا حساب النجوم وتسييرها، ولم يكونوا يعرفون من ذلك أيضا الا النزر اليسير، فعلق الحكم بالصوم وغيره بالرؤية، لرفع الحرج عنهم في معاناة حساب التسيير، واستمر الحكم في الصوم، ولو حدث بعدهم من يعرف ذلك، بل ظاهر السياق يشعر بنفي تعليق الحكم بالحساب أصلاً، ويوضحه قوله في الحديث الماضي: "فإن غُمّ عليكم فأكملوا العدة ثلاثين"، ولم يقل: فسلوا أهل الحساب، والحكمة فيه كون العدد عند الاغماء يستوي فيه المكلفون فيرتفع الاختلاف والنزاع عنهم".

وجاء كلام أحمد محمد شاكر السابق تأويلاً لكلام ابن حجر هذا، حيث يقول شاكر: " أصاب علماؤنا المقدمون رحمهم الله في

تفسير معنى الحديث، وأخطأوا في تأويله، ومن أجمع قول لهم في ذلك قول الحافظ ابن حجر". يريد من ذلك أن الرؤية موقوفة على عدم العلم بالحساب، فإذا ما انتفى عدم العلم، انتفت الحاجة للرؤية، وتقدم الحساب.

وقد يُنظر في هذا التأويل إذا قطع المأول بأن الأمية زائلة عن عموم الأمة في حواضرها وبواديها بما يرفع التيسير الذي هو الرؤية والعودة إلى ما هو أشق وأشكل، والذي هو الحساب الفلكي. ولكن! لا الأمية زائلة عن عموم الأمة، على ما سيأتي تفصيله في معنى الأمية الذي صُبَّ في قالب عدم الكتابة والحساب دون غيره، والمعنى أوسع من ذلك، ولا خَفَّت إشكالات الحساب الفلكي - القطعي بالرؤية - من عدمها حتى مع عصر الحواسيب العملاقة، وسيأتي شرح ذلك بالتفصيل بالمقال التالي إن شاء الله، وحيث أنه لا قطع بحدوث هذين الأمرين جميعاً، فلا جواز لقبول تأويل الحديث بتعليق الرؤية.

ثم، كيف يُعلَّق أمرٌ يَسَّره الله، واللجوء إلى الأشد عسراً ولا يحقق في النهاية الغرض يقيناً. ألا يشبه ذلك ما قال الله تعالى فيه (أي الصيام مع السفر): "فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ"(البقرة: ١٨٥). فَمَنْ على وجه الأرض - من أهل الفتوى والعلم القويم بالدين - يستطيع أن يقول: إن العلة التي هي "العسر" هي المشقة البدنية، وإذا زالت، زال الحكم، ووجب الصوم حتى مع السفر. فما أدراه أن العلة ليست أوسع من ذلك، فيُحَكِّم فهمه في العلة ويسقط النص!

وإذا رجعنا إلى الحديث "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا .."، فنتساءل: أي دلالة قاطعة على أن المعنى لا يكون على النحو الآتي: [هذه الأمة أمية لا تكتب ولا تحسب في أمر عباداتها وشريعة ربها، فلا تُحمِّلوا الأمة ما لا يستطيعه عوامُّها، فكما أن الله تعالى قد يسَّر أمر صومها وعيدها بمحض رؤية الأهلة التي هي في مقدور جميع أفرادها المكلفين، على حكم الكفاية، كما قال تعالى "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ"(البقرة: ١٨٩)، وكما أن الله تعالى قد يسَّر قراءة القرآن، "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ"(القمر:٤٠،٣٢،٢٢،١٧)، على الرغم ما فيه من أسرار تتابع أجيال العلماء عبر القرون وحتى قيام الساعة في تدبرها والوقوف عليها، لا تنفك لهم عراها إلا بقدرٍ من الله، فكذلك في سائر أمر دينها. فلا تُلجئوا الناس إلى ما هو أشق على بعضهم]. وكأن الحديث بهذا المعنى يضع ضابطاً للمُشَرِّعين في تيسير الأمور. وهذا الضابط استنبطه علماء الأصول بالفعل من هذا الحديث وأمثاله، ألا تجد لهم مثل ذلك في قواعدهم الفقهية من مثل: "الأمر إذا ضاق اتسع"، و"الضرورات تبيح المحظورات"، و"المشقة تجلب التيسير"... وإذا التزمنا بتأويل أحمد محمد شاكر، لكان الأمر على خلاف ذلك، ولجاء على النحو التالي: "كل أمر يسير على الأمة إذا استطاعت ما هو أشكل منه وأعسر، (من أجل دقة مزعومة)، فعليها به ولتترك الأيسر"!!!

فإن قيل[x] إن هذا الذي تُسمُّونه الأعسر، إنما هو لأجل الدقة والضبط. قلنا: هذا وهم، فما من أحدٌ من علماء الفلك يستطيع التنبؤ **يقيناً** بأول رؤية بصرية للأهلة، على نحو ما سنرى!

وإن قيل إن أهل الرؤية مختلفون، قلنا: عليهم أوزارهم في إنزال الأحكام منازلها، والرؤية صحيحة! ألا تراهم اختلفوا في مسائل كثيرة يصعب حصرها! هل نهدمها أو نُبَدِّلها حتى يتفقوا، فليختلفوا وليبق الشرع ناصعاً كالنهار! وليُظْهِرَنَّ الله تعالى الحق ساطعاً، وإن غداً لناظِرِهِ قريب.

وإن قيل[xi]،[xii] إن "الأمية" قد زالت بما نراه من واقع الحال التعليمي والتقني، وقد شهد بذلك ابن تيميه[xiii] وابن خلدون[xiv] وغيرهم. قلنا: إنهما – رحمهما الله - قصدا من "الأمية" أحد الجوانب الأداتية المعيارية، ولم يقصدا عموم معنى "الأمية" الشامل لجانبيها التربوي والأدبي، وهذا ما سنبينه في هذا الدراسة بإذن الله تعالى.

وعلى ذلك، فهذه الدراسة معنية بتحقيق مفهوم "الأمية" من وجوهها المتعددة على أكمل صورة استطعناها، وفي حدود المسموح به من مساحة. وأين يقع من هذه الوجوه كون "الأمية" علّة الرؤية الصريحة للهلال، وهو الأمر الذي به وحده يتعين دخول الشهر العربي.

الأزمة العميقة في "مفهوم الأمية":

جاءت صفة "الأمية" بعدد من الاشتقاقات في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، على ما هو معلوم. وتحير المُنظِّرون حين تدبروا المراد منها، وخاصة المعاصرون منهم. وسبَّبَت صفة "الأمّية" – ومازالت – حرجاً لهم، لما ظنّوه بها من أنها صفة ذم ونقيصة! إذ لا أحد من الناس يرضى أن يوصف بأنه أُمّي، بالمعنى الشائع والطاغي من أنه: "الجاهل الذي لا يقرأ ولا يكتب ولا يحسب"، فكيف تكون الأمية صفة من صفات الأمة، وخاصة عند النص بها على نحو قول الرسول صلى الله عليه وسلم "إنا أمة أمية، لا نقرأ ولا نكتب"؟ - أمّا وصف القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم بـ "النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ"، فقد تم ضبط حِكْمة المعنى لتنتقل هذه الصفة إلى صفة مدح خاص، وإعجاز نبوي، بحكم أنه – صلى الله عليه وسلم - يتلقى الوحي والحكمة من الله تعالى، ومن ثم عضَّد ذلك كونه نبي ورسول، وائتلف معه، غير أن هذا المخرج ظل جدلياً بعض الشيء[xv].

ومن الشواهد المعاصرة لهذه الأزمة في مفهوم الأمية، ومحاولات الخروج منها ما يلي:

(١) قيل[xvi]: [للأمية معنى خاص ومعنى عام: أما المعنى العام فيعني الجهل والضلالة والظلام، وأما المعنى الخاص فهو عدم

معرفة الكتابة. ولا ترتفع الأمية عن أحد بمعناها الخاص إلا متى عرف الكتابة، كما أنها لا ترتفع عن أمة بمفهومها العام إلا متى خرجت من الجهل والضلالة والظلام إلى العلم والهدى والنور. ولا يخرجها من هذا إلا نبيٌّ وكتاب. ... ولكن الأمية بمعناها العام ارتفعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحي عليه، كما أن الأمية بمعناها الخاص بقيت ملازمة له لأنه لا يعرف الكتابة، ولكن ملازمة الأمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فضيلة وكمال وفي غيره نقيصة".

نقول: لا نرى توفيقاً في ذلك، وخاصة أن التمييز بين نوعين من "الأمية"؛ خاص وعام، لا داعم له من لغة أو استدلال عُرْفِي عند أهل اللغة، كما أن ارتفاع "الأمية" عن الأمة – حسب هذا الزعم - ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم ونزول الكتاب، يرفع عن الأمة صفة "الأمية" التي هي علة للرؤية ونبذاً للحساب في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب"، ومن ثم يدعم قول أحمد محمد شاكر بزوال العلة، ومن ثم إعمال الحساب واعتباره العمدة في ذلك. غير أن نص الحديث لا يفهم إلا في إطار هذا التعليل، ومع ذلك، ولعدم الوقوع في التناقض، أنكر صاحب العبارة الواردة أعلى هذا التعليل بعد ذلك، وسعى لتزكية إنكاره بقوله: [إن حجة القائلين بتعليل الحديث غير صحيحة من عدة وجوه]، ثم عدَّد وجوهاً عشرة لم نجد أوهن منها، يمكن الرجوع إليها لمن شاء. وكان آخرها استدلالاً على أن الأمية في العالم العربي تقترب من أن تكون أعلى معدلات الأمية في العالم، ومن ثم يقيم على أصحاب الحساب الفلكي حجته بأنهم عليهم بذلك الإبقاء على الرؤية حسب حجتهم في التلازم بين الرؤية و"الأمية"، ولم ينتبه إلى أن هذا الاحتجاج قد هدم حجته القائلة بانتفاء الأمية عن الأمة ببعثة النبي ونزول الكتاب. لذا ارتبكت هذه المحاولة واضطربت أيّما اضطراب، ولم تحقق أمنيتها بإزالة التناقض الكامن في "الأمية" – بما كسبت أفهامُنا - بين النقيصة والفضيلة.

(٢) قيل[xvii]: [هذا الوصف بالأمية لا يعني - في رأينا- الأمية الكتابية ولا العلمية، وإنما يعني الأمية الدينية، أي أنهم لم يكن لهم قبل القرآن الكريم كتاب ديني، ومن هنا كانوا أميين دينيًا، ولم يكونوا مثل "أهل الكتاب" من اليهود والنصارى، الذين كان لهم التوراة والإنجيل. ومن الأدلة التي نسُوقها للاحتجاج لهذا الرأي أن القرآن الكريم قد وصف فريقًا من أهل الكتاب بالأميين، وذلك في قوله تعالى: "وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ"(البقرة: ٧٨-٧٩) فأمية هذا الفريق ليست أمية كتابية؛ لأنه قد أخبر أنهم كانوا يكتبون بأيديهم، وإنما هي أمية دينية، أي جهل بالدين وإنكار له وعدم تصديق].

نقول: لا يستقيم هذا الرأي مع إثبات الأمية في الحديث: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب". إذ لو كانت الأمية دينية فكيف

يثبتها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته وينسب نفسه لهذه الأمة متكلماً بلسانها بقول صلى الله عليه وسلم: "إنا أمة أمية"، وقد جاء لإزالة الجهالة الدينية! ثم ما علاقة الأمية الدينية بنبذ الحساب واعتماد الرؤية فقط للهلال؟! لذا فهذه المحاولة في فهم "الأمية" غير مُوفقة أيضاً. أما عن الاستشهاد بالأميين من أهل الكتاب كما جاء ذكرهم بالآية، فغير لازم أيضاً، إذ ليس بالضرورة أنهم هم الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، فالعبرة بأميتهم كانت مرتبطة بـ (انحصار معرفتهم بالكتاب على سبيل الأماني، وعدم التلبُّس بهذه المعرفة تحقيقاً ودراية).

(٣) يقول الجابري[xviii]: [الفهم السائد هو أن الأمي من لا يعرف القراءة والكتابة، فهل يَصْدُق هذا على الآيات السابقة؟ (وكان قد أورد الآيات: (الأعراف:١٥٧)، و(البقرة: ٧٨)، و(آل عمران: ٢٠، ٧٥)، و(الجمعة:٢)، ويستكمل:) الجواب عندنا بالنفي، لأن التقابل في كثير من هذه الآيات هو بين طرف هو "الأمّي" و"الأمّيون" من جهة، وبين طرف آخر هم "أهل الكتاب". والمقصود بهم اليهود والنصارى من جهة أخرى. وما به يفترق الطرفان هو أن الطرف الثاني لديه "كتاب" هو التوراة والإنجيل، والطرف الأول ليس لديه كتاب، فالأمّيون إذاً هم الذين ليس لديهم كتاب سماوي. وقد جاء القرآن ليكون لهم كتاباً خاصاً بهم.]

نقول: قد نُسَلِّم لهذا التقسيم في قوله تعالى: "وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ "(آل عمران: ٢٠)، وفي قوله تعالى: "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ"(آل عمران: ٧٥)، ولكن هذا التقسيم يسقط بالكلية في قوله تعالى: "وَمِنْهُمْ (أي من أهل الكتاب) أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ"(البقرة: ٧٨). أمّا في قوله تعالى: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ"(الأعراف: ١٥٧)، وقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ"(الجمعة:٢) فلا تأييد ولا تعارض للتقسيم المزعوم.

وفي محاولة نُصرة هذا الرأي بالتزكية – أي القارن بين الأمية و"غير أهل الكتاب"- دون المعنى المُعجمي السائد لـ "الأمي"، أي "عدم الكتابة والحساب" يوهن صاحب المقولة السابقة المعنى المُعجمي – بعد إيراد نقولاً من لسان العرب حول نسب الأمية إلى الأم والأمَّة والبقاء على ما ولدته أمه عليه- بقوله[xix]: [هذا المعنى اللغوي ليس نقلاً عن العرب، بل هو اجتهاد من علماء اللغة في إيجاد أصل لكلمة أمّي في لغة العرب، وهو أصل لا يستقيم مع الحديث المذكور والآيات السابقة لأنه يقوم على نسبة "الأمي" إلى الأم كما وضعته، على عجمة اللسان والعي والجفاء، وهي صفات لا تليق بمقام النبي محمد صلى الله عليه وسلم ولا مقام قومه وأمته.]

نقول: غَنِيٌّ عن البيان أن العبارة الأخيرة كانت دافعاً غائياً للتخلُّص من معنى "عدم الكتابة والحساب" من تعلقها بالأمية! ولو أن سياق الحديث "إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب" فُهم في سياقه – على نحو ما سنرى لاحقاً - لسقط هذا الحرج الذي أراد صاحب المقولة التخلص منه، بتبرئة الرسول صلى الله عليه وسلم، والأمة من هذه النقيصة التي هي "الأمية" – عند من يتوهم أنها نقيصة.

(٤) مثلما جنح الجابري أعلى ناحية تعريف الأمية على أنها فقط صفة غير أهل الكتاب، نجد لويس عوض من قبله يقول[xx]: [كانت العرب تقسم الناس إلى عرب وعجم، ومع ذلك تعترف بالتبويب اليهودي للبشر إلى يهود وأمم أو قبائل، ومن هنا جاء الكلام على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أنه النبي الأمي ومعناه الحقيقي، ليس النبي الجاهل بالقراءة والكتابة، كما في المعنى المتوارث المتداول، وإنما النبي الأمي؛ أي النبي الذي ليس من بني إسرائيل، لأنه من سبط هاجر المصرية وابنها إسماعيل، وليس من سبط سارة وابنها إسحق والد يعقوب ("إسرائيل") مؤسس الشعب المختار. ولما كانت النسبة في العربية الفصحى لا تكون للجمع[xxi] "فالأممي" صحتها "الأمي" كما يقال "ملكي" ولا يقال "ملوكي" وكما يقال "قَبَلي" ولا يقال "قَبَائِلي" ... إلخ" يؤيد ذلك قول القرآن ..." هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ "(الجمعة:٢) بمعنى بعث في غير بني إسرائيل وليس بعث في الجهال].

ويستكمل مدللاً على كلامه ويقول: [ويلاحظ أنه كلما ورد ذكر "الأميين" أو "النبي الأمي" في القرآن، إنما ورد في سياق الحديث عن "أهل الكتاب"، في باب التمييز والمقابلة كما يدل السياق: "وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ"(آل عمران ٢٠). " وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ"(البقرة: ٧٨)، "فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ "(الأعراف: ١٥٨)، " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ"(آل عمران:٧٥)."

ويستشهد بشاهد آخر ويقول: [كذلك كان اليونان يقسمون العالم إلى إغريقي أو هلليني وبربري (باربا روس)، وكان الرومان يقسمون العالم إلى روماني وبربري، وكان العرب يقسمون العالم إلى عربي وعجمي.] – انتهى الاقتباس من كلامه.

ومما أتى به وحمله على غير محمله قوله[xxii]: [هناك وحدة اشتقاقية بين جذر كلمة "أمه" وجذر "عمّ" و "عامة" و "عموم"، فالجذران منحدران من أصل واحد هو الذي انحدر منه كلمة "أومنيا" Omnia اللاتينية بمعنى "الجميع" أو "الكل" أو "الكافة"، وهذا الجذر هو Omnالذي انتهى في الاتجاه السامي إلى تشديد الميم، بامتصاص النون في الميم السابقة عليها فخرجت "أمة" و "عامة" وهما أصلاً بمعنى واحد. ولا تزال تلحق بكلمة "عامة" و "عوام" بعض آثار التحقير المتخلفة عن

معنى "الأمم" التي ليست من شعب الله المختار، وهو معنى "الدهماء" أو "البرابرة" Barbaros كما كانت اليونان والرومان تقول.]

نقول: أنه لو صحت هذه الاشتقاقات لم يلزم عنها أن مصدر المفهوم (الأمة/العامة) ارتبط في الأصل بفلك بني إسرائيل. فهذه النظرة الدونية ظاهرة طبيعية في الحضارات الكبرى لغيرهم ممن هم دونهم في المرتبة الحضارية. فهذا فرعون كان يعامل بني إسرائيل أنفسهم بهذه النظرة الدونية، ويستعبدهم في نفس هذا الإطار المفهومي التحقيري، فكيف نفسرها إذاً قبل تشكُّل بني إسرائيل المزعوم بأنهم الشعب المختار لو صدق القائل أعلى؟! أما عن هذه الاشتقاقات، فإنها تُزَكّي الالتقاء الدلالي بين "الأمي" و"العامي" أكثر مما تُزكّي أن كل منها صفة تحقير. وهذا يبعد بـ "الأمية" عن أن تكون صفة جنس دون غيره، لأن هذه الصفة لا يخلو منها جنس من الناس بمن فيهم اليهود، ودليل ذلك أن القرآن سمّى (من اليهود من لا يعلمون الكتاب إلا أماني) بأنهم "أمّيون" حين قال تعالى "وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ"(البقرة:٧٨)، أي: من عوام اليهود، ومن ثم فالأقرب أن "الأمية" تشير إلى صفة تظهر في كل جنس من الناس، فتتفشّى في بعضها أكثر من غيرها، ولا تشير إلى جنس بعينه.

(٥) أما صاحب العالمية الإسلامية الثانية، فله قولٌ شبيهٌ بما قاله كل من الجابري ولويس عوض، غير أن تحليلاته جاءت أشد عمقاً وشروداً، يقول[xxiii]: [

١- الأمية لا تعني (غير الكاتب)، ولكنها تعني (غير الكتابي)

٢- القرآن لا يشير إلى تلك الحقبة السابقة على الإسلام بوصفها جاهلية، وإنما بوصفها (أمية)، وذلك حين يتجه الخطاب القرآني للمقابلة بين من سبق أن تنزل عليهم الكتاب، وهم اليهود، وبين الذين لم يتنزل عليهم الكتاب وهم الأميون وليس الجاهليين: "فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا.."(آل عمران:٢٠).

٣- في سورة الجمعة يحدد الله - سبحانه – فئتين من الأميين (غير الكتابيين)، فئة تنزل عليها القرآن وانبعث النبي الأمي من بينها، ثم فئة أخرى لم تلحق بالفئة الأولى بعد ولكنها لاحقة، ثم يقابل الله بين فئتي الأميين والكتابيين اليهود الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها. ...

٤- وتعميقاً لهذه الدلالة اللغوية المعرفية في لسان القرآن نجد أن الله - سبحانه – يطلق على الفئة الضالة من اليهود الذين يكتبون ويقرأون، صفة (أميين)، لتقرير أنهم لا يفهمون التوراة ويزيفون معانيها ويدسون عليها من كتاباتهم: "وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا

يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ.."(البقرة:٧٨-٧٩)

فهؤلاء الأميون اليهود – يكتبون الكتاب بأيديهم – و – فويل لهم مما كتبت أيديهم، فهم أميون لأنهم (لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون). **فصفة الأمي تنطبق على من يجهل كِتابه ويأخذه بالظن والأماني وليس الأمي من يجهل الكتابة.**

٥- أشكلت هذه المعاني على كثير من المفسرين، وجنح الفكر... فدرج الناس على تعريف الكتاتيب حيث يتعلم الأطفال الخط بمدارس (محو الأمية)، **ومحو الأمية تعني الإيمان بكتاب الله وتصديقه.**

٦- **نُسبت أقوال إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقلها مثل: (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب)**، فكيف كتب الوحي القرآني وهم لا يكتبون؟ وكيف كتبت المعلقات الشعرية وعُلِّقت في الكعبة وهم لا يكتبون؟ وكيف حسبوا تجارة الصيف والشتاء وهم لا يحسبون؟ ومن أين جاءت وكيف تطورت الأبجدية العربية وهم لا يَخطّون؟ وبأي خط كتب الرسول رسائله إلى عظماء الروم والفرس؟ وبأي خط صيغت صحيفة المدينة؟ وبأي خط كتبت معاهدة الحديبية؟ والرسائل إلى ولاة الأمصار ومناطق الثغور؟ ... ومع ذلك وُثِّقت معظم مراجع اللغة العربية هذا الخلط ... – لسان العرب – و"الأمي: الذي لا يكتب، قال الزجاج: الأمي الذي على خلقة الأمة لم يتعلم الكتابة، فهو على جبلته ... قال أبو إسحاق: معنى الأمي المنسوب إلى ما عليه جبلته أمه أي لا يكتب."

٧- [هذه الأمة (الأمة القطب) أو (أمة الأمم) تَحقَّق في انطلاقتها الأولى ذلك الانتشار الذي أنقذ الإنسان من أُمِّيته وأخرجه من إحيائيته، وأطلقه من عقال شركه، ليكون الناس جميعاً بمستوى واحد (أهل كتاب) ولكن هذه المرة سيكون (الكتاب الأخير المستوعب لتراث النبوات)][xxiv].

ويقول أيضاً:

٨- [العالمية الإسلامية الثانية تعبير عن دلالة الكتاب (التاريخي)، حيث يطرح تنامي الدورات الدينية ضمن أربع مراحل، بداية بالدورة العائلية (آدم) ثم الدورة القبلية (بنو إسرائيل) ثم**الدورة الأمية** (العالمية الإسلامية الأولى) التي شملت **غير الكتابيين ما بين المحيطين** ... ثم الدورة العالمية الشاملة (العالمية الإسلامية الثانية) حيث يظهر الهدى ودين الحق على مستوى العالم كله فيستوعب ويتجاوز كافة الأنساق الحضارية والدينية والمناهج المعرفية لما تبقى من الشعوب الأمية غير الكتابية وتلك الكتابية.][xxv].

ويقول:

٩- [مفهومنا لهذه الدورات الحضارية الدينية ... يقوم على (التدافع) بين هذه الحالات وحالات أخرى نقيضة لها ومماثلة لها من

جنسها:

- ففي مقابل إبليس كان هناك آدم،
- وفي مقابل فرعون وقومه كان هناك موسى وقومه،
- وفي مقابل **الأمية** الرومانية ذات الجذور الهلينية وإن اتخذت المسيحية بشكل معين، وكذلك مماثلها **الأمي** الفارسي، كانت هناك عالمية **الأميين** الإسلامية الأولى،
- وفي مقابل الحضارية الوضعية العالمية الراهنة والتي تنطلق من المركزية الغربية أو العولمة الأمريكية هناك عالمية الإسلام الشاملة أيضاً والتي ستليها بإذن الله[xxvi].

ويقول طه جابر العلواني مؤيداً رأي صاحب العالمية الإسلامية الثانية في معنى الأمية[xxvii]: [إندمج العربي بالفتح في الإطار الجغرافي البشري للعالمية الإسلامية الأولى التي ضمت في داخلها معظم الشعوب (**غير الكتابية**) وتحقق قول الله جل شأنه: " هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ"(الجمعة:٢-٤)].

نقول: تصب كل هذه الأقوال مفهوم "الأمية" في دائرة (غير أهل الكتاب من اليهود والنصارى). غير أنها لا تقيم حجة، ولا تدفع شبهة. إن المنطقة التي شملها الإسلام ودخل الناس فيها في دين الله أفواجاً لم تكن عديمة الثقافة أبداً، بل إنها شملت الميراث الحضاري الحقيقي من حضارة ما بين النهرين إلى السومريين إلى الفينيقيين والأكاديين ومرورا بالحضارة المصرية ووصولا إلى حضارة قرطاجنة التي غزت أوربا في عقر دارها من جهة شبه جزيرة أيبريا وهددت كيانها، غير أنه حال بينها بين تحقيق ذلك جبال الألب. إن هذه الحضارات وإنتاجها الفكري في أمور الدنيا هو الذي اقتاتت عليه وما زالت الحضارة الحديثة وربيبتها اليونانية. وأينما تذهب في تاريخ العلوم تجد أن جميع المسارات تقودك إلى نبع هنا أو هناك في تلك المنطقة الممتدة! ... فكيف توصف بأنها جمع من الأميين؟!. هل أصبحت عائلة واحدة هي بني إسرائيل هي المركز وإليها يُنسب باقي الأمم. لو كان هذا صحيح لكان الاشتقاق الصحيح هو (الأممية) وليس (الأمية)، ولكان من يُنسب إليها يسمّى (أممي) وليس (أمي). لهذا السبب سعى لويس عوض – كما رأينا أعلى - إلى قطع الطريق على هذا الاشتقاق بحجة أنه غير صحيح في اللغة العربية، وقد فندنا كلامه في شأن هذا الاشتقاق في الحاشية باستدلالات موثقة.

وإذا كانت المنطقة التي ستصبح أسلامية هي منطقة الأميين، وإذا كانت الأمية تعني غير أهل الكتاب، فكيف يتم قبول ذلك

وكانت المنطقة في الشام والعراق والحبشة، بل ونجران في جزيرة العرب، تعج بالنصاري، وفي مصر بالأقباط؟! فهم حسب التعريف ليسوا أميين، فكيف يقال أنهم شعوب غير كتابية، ومن ثم أنهم "الأميون" الذين انتشر الإسلام فيهم؟!

أما عن إنكار صاحب العالمية الإسلامية لحديث صحيح كما رأينا (رقم ٦ أعلى، في ترتيب أقواله) وقوله: [**نُسبت أقوال إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقلها مثل: (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب)**] فهذا رأي فاضح قادح! ولا ندري بأي وجه يرُد حديثاً صحيحاً – وقد صحَّحه الألباني - لمجرد أنه ليس على غير وفاقٍ مع تفسيره الواهن! ولو أنه ضعَّف الحديث، لكان أخف وطأة، أمّا أن يقول: "لم يقل الرسول ذلك"، فهذا ما لا يمكن قبوله، ونسأل الله تعالى أن يغفر له.

(٦) أما إبراهيم أنيس، فقد كان أكثر اقتراباً من الإنصاف في معنى الأمية، فنجده يقول[xxviii] : "يبدو أن كلمة (الأمي) من الكلمات التي لم تكن شائعة في الاستعمال قبل الإسلام، فلا نعرف لها نصاً صحيحاً من نصوص الأدب الجاهلي، ولا نعرف أن العرب قد اشتقُّوا لها فعلاً، أو غيره من أنواع المشتقات. .. ومهما يكن من أصل هذه الكلمة، فالذي يبدو من استعمالها القرآني أنها وصف لا يراد به الحط من شأن الموصوف، أو الانتقاص من قدره، بل يوصف به من ليس من أهل الكتاب، سواء كان يقرأ ويكتب، أو ممن لا يقرأون ولا يكتبون. ففي قوله تعالى " الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ "(الأعراف:١٥٧) وقوله "فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ "(الأعراف: ١٥٨) يدعو سبحانه أهل الكتاب من بني إسرائيل أن يؤمنوا بذلك الرسول الذي ليس منهم، والذي ورد ذكره في كتبهم."

نلاحظ أن ابراهيم أنيس توقف في تعيين معنى الأمية بين القولين: (من ليس من أهل الكتاب)، و(من لا يقرأ ولا يكتب)، وقال أن المعنى هذا أو ذاك، وهذا إنصاف منه، لأن استبعاد أحد المعنيين لا بد له من قرينة، ولأنه لم يجد هذه القرينة الحاسمة فقد توقف. وهذا أمرٌ يَسلَم له.

أما ما لا يَسلَم له من النقد، فهو أنه أتي بقوله تعالى " الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ " وأفاد بأن هذا الوصف (الأمي) للنبي صلى الله عليه وسلم دلالة لبني إسرائيل على أنه ليس منهم، وأنه الذي ورد ذكره في كتبهم. غير أن قول الله تعالى " النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ " مستقلاً، لا يفيد بالضرورة أنه صلى الله عليه وسلم ليس من أهل الكتاب، دون المعنى الثاني الذي هو عدم القراءة والكتابة، فترجيح المعنى الأول يحتاج إلى دليل منفصل من خارج الآيات إذا لم يتيسر منها. أما الإفادة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم "هو الذي ورد ذكره في كتبهم" فهذا لا يشتق من ذلك الجزء من الآية التي ذكرها، وإنما من تكملتها التي أسقطها، حيث أن نص الآية هو: " الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ"، ومن

ثم فكونه هو الذي جاء ذكره في كتبهم أمر صريح في الآية، ولا يتطلب عليه أي استدلال من لفظ "الأمي"، أما إن كان يقصد أنه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل أنه "النبي الأمي" هكذا بالتصريح، فهذا غير ضروري من الآية، ومن ثمّ، لا يُبنى عليه دليل يقول أنهم يعلمون أنه "أمّي" بالتصريح اللفظي، بمعنى أنه من غيرهم. هذا، ومن جهة ثانية، ففي التوراة حسب ما نعلم، أنه جاء (أن النبي صلى الله عليه وسلم من أبناء إسماعيل، أبناء عمومة بني إسرائيل، إخوانهم في دين إبراهيم their Brethren، وأنه سيواجه مثل ما واجه موسى فيكون مثله في أشياء كثيرة، وأن الله تعالى سيضع كلامه في فمه، وأنهم يجب أن يسمعوا له)[xxix]، ومن ثم فهو من غيرهم من هذه الجهة، وليس من جهة التصريح بأنه "أمّي"، ما لم يثبت ذلك من جهة أخرى لا نعلمها[xxx].

أما قوله تعالى " فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ " فلا يستقيم سياقها مع تخصيصها لأهل الكتاب، إذ لو أتينا بالآية على تمامها سنقرأ "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"، ومن ثم فهي خطاب للناس جميعاً، ولا محل لتخصيص وصف (الأمي) هنا لتفيد (الذي من غير أهل الكتاب).

تأكيد الأزمة الفكرية في مفهوم الأمية

تؤكد الأقوال السابقة وجود أزمة حقيقية في وعينا بمفهوم "الأمية"، وقد خاض في هذه المسألة الحرجة العديد من الباحثين، بما لا نستطيع معه حصراً لهم ولا لأقوالهم جميعاً، غير أن البعض يغني عن الكل في تأكيد الأزمة وحاجتها لمعالجة جديدة. ونتساءل: هل يكمن السبب في آليات البحث العلمي الاجتهادي؟ ... لنلقي نظرة على ذلك:

هل تكمن الأزمة الحقيقية في منهجيات البحث العلمي الاجتهادي؟

أولاً: في التعليل الفقهي:

نقول أنه: ليس الباحث العلمي المقبول عمله، بمخترع أسماء لم يكن لها في قلب موضوعه البحثي معاني مستنبطة، ومن يفعل ذلك فقد أتى بأسماء لم يُنزل الله تعالى بها من سلطان. كما أنه ليس بمُسمّي الأشياءَ بغير أسمائها، وإن فعل، فقد ألبس على الناس دينهم، ونقل الأحكام إلى غير مظانّها.

أما المهمة الحقيقية للباحث المجتهد، فهي تحقيق ما أُثر عن معنى العلم ونحواه، من أنه[xxxi]: [التفريق بين المختلفات والمساواة بين المتماثلات]. أي: تفكيك المعاني فتتميز المختلفات منها، ثم التسوية بين المتماثلات منها في علل الأحكام، (و"التسمية" من

الأحكام اللُّغوية)؛ ومن ثم يُحمَل الاسم على متعلَّقه بعد التأكد من تحقق علته، فيرتد الحكم الفقهي الشرعي لمُسَمّاه على وجه صريح، دون التباس ولا اندراس، ومن ثم: دون تبديل ولا تعطيل.

ويكمُن هذا الكنز العلمي في طريقة الأصوليين في استنباط الأحكام، فحيثما يعثر الباحث (الفقيه) على علة الحكم (بسيطة كانت أو مركبة، بعد استيفاء مناطها من تخريج وتنقيح وتحقيق)، يقتنصها ويعتبرها فيما تظهر له في مسائل أخرى مطلوب استخراج حكمها، وهذا هو مرجع قولهم: "الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً".

والخطر كل الخطر أن يقرن الباحث الحكم بعلة غير صحيحة، أو غير مستوفاة لأركانها. أما الطامة الكبرى، فهي أن يلجأ الباحث إلى هذا المنهج (والمشهور بالقياس الفقهي) – بعدما يجد أن العلّة غير متحققه بظنه في المسألة التي يراد لها الحكم، رغم أنها "نصٌّ" لا يتطلب الامتثال له تعيُّن عِلَّتِه - فيرُد بفعله ذلك نصّاً لله تعالى، أو لرسوله صلى الله عليه وسلم، وكأنه لم يكن. ومعلومٌ أن القياس الفقهي ليس إلا وسيلة لتمديد الأحكام لما لم يأتنا فيه نص، أما مع ورود النص في المسألة، فلا قياس ولا استنباط، وهذا هو المقصد من قولهم: "لا اجتهاد مع "النص".

ومن الأمثلة الفاضحة في اللجوء إلى القياس مع ورود النص امتناع إبليس عن الامتثال للنص الإلهي بالسجود لآدم كما سجدت الملائكة، ثم اللجوء إلى القياس بعلة خاطئة، وهي أنه خُلق من نار وليس من طين كآدم، ثم قيامه باقتران العلة مع مبدأ وضعه من عند نفسه وهي أن النار أفضل من الطين، فالحكم عندئذ – كما ظن - أنه لا ينبغي له أن يسجد لآدم! ومن يلجأ إلى تقديم القياس على "النص" مع علمه بِنَصّية النص، يقع دائماً في ما وقع فيه إبليس من مراجعة على أمر الله تعالى، علام الغيوب والسرائر، تعالى قدره وتقدس في علاه عما يهزي الغافلون ويظن الظانّون ويعاند المعاندون.

وقد يَرِد "النص" مع العلة، فيظن ظانٌّ بأن الغرض هو التعريف بالعلة دون الامتثال للنص كما هو الحال مع غياب التصريح بالعلة، فيُهمل النص حيثما ورد، ويلجأ إلى العلة حتى في عين المسألة التي ورد معها النص. ومثال ذلك ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "[عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين.**][xxxii]". فجاء النص: "الشهر هكذا وهكذا..." وجاءت العلة: " **إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب** ". فكان إهمال بعض المُنظّرين في ذلك "النص"، وتعليقه بالعلة. رغم أن فائدة العلة عند القياس، لا عند الامتثال للنص، والذي هو أولوية مطلقة، وخاصة إذا ترافق معه نصوص حديثية شارحة لا تترك مجالاً للاختيار مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "**الشهر تسع وعشرون ليلة فلا تصوموا حتى تروه فإن غُمَّ عليكم فأكملوا**

العدة ثلاثين"[xxxiii]، وهو يشرح كيفية المعالجة التفصيلية للاختيار بين التسع والعشرين أو الثلاثين، ومعلوم عند الأصوليين أن صيغة النهي "لا تصوموا" للتحريم (وهنا: في ما عدا الرؤية من استدلالات على دخول الشهر). فكيف يمكن تبرير اللجوء للقياس إذا ورد "النص" بهذا الوضوح؟!

هذا هو موطن الطامة الكبرى التي تتعلق بها مسألتنا. وهي أن تحكيم معنى الأمية بأنها "عدم الكتابة والحساب"، وأنها علة ضرورة الرؤية العيانية للهلال بدخول الشهر، ثم تحكيم هذه العلة مع ورود النص. كل هذا أفضى إلى طرح الرؤية وإبطال حكم فقهي لا سبيل لإبطاله مع ورود النص. ونميّز هذا الداء في قَصْر معنى "الأمية" على "عدم القراءة والكتابة" بأنه تخصيص عام بما لا مخصص له. وسنزيد هذا الأمر وضوحاً فيما يلي.

ثانياً: في التحقيق اللغوي،

هل "الأمية" لفظ من ألفاظ "الوجوه"، غفل عنه الباحثون؟!

قادنا اجتهادنا – الذي نأمل فيه الإصابة بإذن الله تعالى – أن لفظ "الأمية" في القرآن الكريم، من ألفاظ الوجوه، (والتي تُدرس في علم "الوجوه والنظائر")، ومعنى ذلك، أن معناه يعتمد على السياق، وأنه لا يجوز أن نُخَصِّص له معنىً فريداً صريحاً واحداً ونستبدل به لفظ "الأمية" أو اشتقاقها حيثما يرد في القرآن، كما فعل الجابري.

وإذا تابعنا هذا الخط الفكري، سنجد أن الارتباك والحرج والأزمة التي شرحنا معالمها، وسقنا الشواهد على وجودها في معنى "الأمية"، سرعان ما تنحل عُراها. ويجدر بنا أن نمهد لمعنى الوجوه لمن لم يتعرض لها، فيمنعه ذلك من متابعتنا.

ما هي ألفاظ الوجوه ؟

ليكن تعريفنا لألفاظ "الوجوه" بالمثال، فتتضح معه الصورة سريعاً، بدلا عن "الحد الجامع المانع" الذي هو من آلات المتخصصين، ومن صناعة المُنَظِّرين[xxxiv].

جاء لفظ "حِجاب" في القرآن الكريم، وهو من ألفاظ الوجوه، على عدة معاني، أي "وجوه" يؤول إليها اللفظ في سياقه، وذلك كالآتي[xxxv]: (اللفظ المثال هو : "حجاب" أو ما اشتق منه)

١- الحجاب يعني **الجبل**، في قوله تعالى " حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ "(ص: ٣٢). (في حاشية المحقق بتصُّرُف: إذا كان الضمير للشمس، فالحجاب هو **الأفق**، أما إذا كان للخيل فيرجع إلى الاستتار عن العين، وهو الوجه الثاني).

٢- الحجاب يعني **الساتر** في قوله تعالى " وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ "(الأحزاب: ٥٣)، وقوله تعالى "

اتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا "(مريم: ١٧).

٣- الحجاب المضمر في قوله تعالى "كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ "(المطففين: ١٥) هو **أفة** مانعة، كالذنوب.

٤- الحجاب هو **السور**، في قوله تعالى " وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ "(الأعراف: ٤٦)

ونصل من ذلك إلى أن لفظ "حجاب" له (في القرآن) أربعة أو خمسة وجوه، هي: (جبل، أفق، ساتر، آفة، سور).

وكثير جداً من ألفاظ القرآن ذات وجوه، ويتعين وجهها في كل موضع أتت فيه بتأثير السياق، فيبرز لها وجهٌ دون غيره. فإذا أخذنا مثال آخر، وليكن لفظ "حبل"، لوجدنا أن وجوهه هي[xxxvi]: (العهد، القرآن، الإسلام، الرسن). ولكن ما هو السياق؟

السياق في تعريف ابن القيم:

يقول ابن القيم[xxxvii]: [السياق يُرشِد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته. فانظر إلى قول الله تعالى " ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ "(الدخان:٤٩)، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير.][xxxviii]

وعلى هذا المنوال (أي: تتبع الوجوه الناتجة عن تغير السياقات) سنسعى إلى التحقيق في لفظ "الأمية" لتعيين السياقات المختلفة التي أتى فيها، ومن ثم وجه المعنى الذي يُلائمه.

الوجه الأول: حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب":

بدا لكل من هب مناقحاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمة الإسلامية، أن الرسول صلى الله عليه وسلم يصف في هذا الحديث أُمَّته[xxxix]. وذلك من قبيل وصف الواصف: نحن العرب أهل الفصاحة، إنا العرب أهل النشامة، ... ، وهكذا. غير أن السياق هنا مختلف عن ذلك. ولفهمه كما ينبغي نقرن هذا الحديث بحديث آخر جاء فيه: [عن حذيفة- رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لقيت جبريل- عليه السلام- عند أحجار المري فقال: ياجبريل إني أرسلت إلى **أمة أمية**: الرجل والمرأة والغلام والجارية والشيخ العامي الذي لم يقرأ كتابًا قط. قال: يا محمد! إن القرآن أنزل على سبعة أحرف][xl]. يريد الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك التيسير على أمته وخاصة أنها تشمل هذه الفئات التي ذكرها، والإشارة إلى صفة الأمية، إشارة إلى أن خطاب التبليغ والتكليف يناسبه الخطاب العام الذي يناسب هذه الفئات المذكورة،

لذا جاء رد جبريل عليه السلام بأن القرآن قد أنزل على سبعة أحرف، أي سبعة قراءات درءاً للحرج في صعوبة تعلم هذه الفئات قراءة كتاب ربها على غير لغتها (أي لهجتها)، ومن وراء ذلك دين الله تعالى الذي أنزل للناس جميعاً، أي مُجمل عقائده وعباداته.

ونفس الشيء يقال في حديث "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب"، فالسياق إنما كان في تعليم الرسول صلى الله عليه وسلك المسلمين علامة دخول الشهر، ولأن العبادات مفروضة على كل مسلم، فيجب أن يعلم المسلم صراحةً كيف يفي بأحكامها ويلتزم بأدائها دون وصاية ولا وساطة ولا رطانة مستغربة، ولأن الأمة فيها تلك الفئات المذكورة في حديث "السبعة أحرف"، فكم تيسير معرفة دخول الشهر – التي هي الرؤية الصريحة - يجب أن يشملهم أيضاً، وإلا كان الحرج، وهو ما رفعه الله تعالى عن أمته، بقوله تعالى "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ"(الحج: ٧٨). لذا فالمراد بقوله صلى الله عليه وسلك "إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب": أي أن خطاب التكاليف العبادية لكل مَنْ ينتسب لهذه الأمة يجب أن يناسب كل فئاتها دون استثناء، ومن ثم يجب أن يناسب أقل هذه الفئات ثقافة، وهؤلاء هم الأميين. أي أن الأرضية التعليمية يجب أن تكون أمية، وهذا هو المقصد من السياق، ولا غرابة فيه، ويشمل ذلك قراءة القرآن والصلاة والصوم والحج والذكر والدعاء، وخطبة الجمعة التي يجب أن تكون أمية (أي عامّة). ومَنْ منا يُنكر أن الخطيب إذا قعر كلامه باصطلاحات لا يعرفها إلا أهل الاختصاصات كان معيبا في خطبته لعوام الناس؟! بل ومُنكراً عليه فعله بلا خلاف؟ ألا يكون أصل الدين وتعلمه كذلك؟ ومن ينكر أيضاً أن يكون الدين "بياناً" أي وضوحاً وجلاءاً. ومن ثم، فالسياق الذي جاء فيه "إنا أمة أمية لا نكتي ولا نحسب" سياق حذف، مفهوم لأهل الحس اللغوي، ويجب تقديره ذهنياً، وهو "في أمر العبادات التي تعم جميع المسلمين". وهذا هو ما أراده الشاطبي في الموافقات حين قال[xli]: [هذه الشريعة المباركة أمية؛ لأن أهلها (يقصد في عمومهم) كذلك، فهو أجري على اعتبار المصالح]

إذا ظهر هذا المعنى جلياً، فيجب أن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلك لم يُرِد بقوله: "إنا أمة أمية" أنّ حَدّ (أي تعريف) ثقافة الأمة الإسلامية هي (الأمية)، بل أراد أننا أهل يُسْرٍ وتيسير في ديننا حتى جعل الله تعالى تعليم الأركان العبادية لهذا الدين للناس كافة كإروائهم الماء الفرات لا تكلُّف فيه ولا مشقة. ومعلوم أن الماء يتم هضمه مباشرةً حال شربه دون تمثيل غذائي، بخلاف أي شراب غيره، ومن وراءه أي غذاء. فكذلك الدين. فأي نقيصة في ذلك. وأي نقيصة في تعليم الناس أيسر السبل والكلام واللغات وباقي ضرورات الحياة؟ بل إن الظواهر الطبيعية تتبع هذا القانون دائماً حتى أصبح عماد علم الميكانيكا هو قانون الفعل الأدني[xlii] Principle of Least Action. والذي فيه تتخذ عناصر الظاهرة المسارات التي تحقق لها

الجهد الأدنى على الإطلاق. ومن هذا القانون يمكن اشتقاق كل القوانين الحركية الأخرى، مهما كان تعقيدها. ويُسمى كامل النظام الميكانيكي باسم هذه الطريقة لأنها الأفضل، أي "ميكانيكا لاجرانج"[xliii] Lagrangian Mechanics. وهذا هو الاسم التِقَني لما يشيع بين المتخصصين باسم "الميكانيكا الكلاسيكية"، بل إنه أصبح النموذج المحتفى به، وجرت محاولات عدة لاستنساخه في أنواع مستحدثة من الميكانيكا. فهل يعيب علوم الرياضيات الكونية أنها "رياضيات أمية"، أقصد أنها قائمة على مبدأ الفعل (الجهد) الأدنى، فعل "الأميين"؟

وخلاصة هذا الوجه أن المقصود من لفظ "أمة أمية" أنه: **لغة الخطاب العام ومستوى التكليف الأيسر الذي يشمل أدنى درجات الأمة ثقافة لرفع الحرج.**

الوجه الثاني: قوله تعالى " هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"(الجمعة: ٢):

نلمح في هذا السياق أنه سياق تربوي، يعين الفئة المستهدفة من منتسبيه، وهي على الصراحة "الأميين"، والسؤال هو: من هم الأميين المستهدفين بالرسالة، والمستهدفين أيضاً بعد قبولهم بمنهج التعليم المبينة محاوره في نفس السياق (أي: التلاوة، فالتزكية، فتَعلُّم الكتاب، فتَعلُّم الحكمة)؟

ولكي يتضح السؤال، فيسهل عليه الإجابة، نتساءل: ما هي إجازة الانتساب (العلمية /المعرفية /التربوية) لدين الإسلام؟

قد يستغرب القارئ سؤالنا هذا، ولكنه - لو أعاد النظر في قراءته – سيجده سؤالاً وجيهاً إلى حدٍّ بعيد. أليس القبول في أي مدرسة فكرية /تربوية /عقدية مشروط بمتطلبات معرفية دُنيا Requisites-Pre يجب على المتقدم الوفاء بها؟!

وما أسرع ما يجيب المتعجل على أن شرط القبول ليس إلا النطق بالشهادة. ورغم أن هذا صحيح من الناحية الآلية، إلا أنه فاقد لروح الإجابة. فليس كل مُقْدِم على النطق بالشهادة يستطيعها! ويمكن لمن أراد، أن ينطقها خوفاً أو اتقاءاً، ويعلم الله تعالى وحده عندئذ صدقها من كذبها. ألم ينطق بها فرعون حين أدركه الغرق، قال تعالى "حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ"(يونس:٩٠)، ألم يدّعيها نابليون بونابرت حين أراد اتقاء مقاومة المصريين له وتظاهر بالإسلام[xliv]،[xlv].

ولماذا نذهب بعيداً، ولنتذكر: ما هي إجابة رسل الإسلام إلى ملوك الأرض حينما سُئلوا عن الإسلام إلى ماذا يدعوا وكيف

الدخول فيه؟! هل أجابوا بأن الإسلام هو الأركان الخمسة، وأن الدخول فيه يكون بنطق الشهادة؟! لا لم يفعلوا، ... لماذا؟ .... لأن صحابة رسول الله – وتلامذته - صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم، كانوا يعلمون الفرق بين التعريف الآلي، والتعريف الحقيقي الكاشف عن روح السؤال.

وسؤالنا: ما هي المتطلبات المعرفية pre-requisites للدخول في الإسلام، التي إن توفرت في نفس المرء وأراد الدخول في الإسلام، انساب الإيمان إلى نفسه كانسياب الماء في جداوله.

الإجابة هي: الأميّة (والأمية، أمية زمنية: أي صغر السن، وقرب المرء من أمه، ومن ثمّ براءته من آثام الدنيا) و(أمية تصورية، أي عدم تشوش أفكاره التي ربتّه أمّه عليها في نشأته الفطرية، عن المذهبيات والاعتقادات الفاسدة)، وهذه وتلك تجتمع تحت لواء "الفطرة".

أما لو ربته أمه على اعتقادات فاسدة، فهو ليس بـ "أمّي"، ويظل أمياً فقط لو بقى على الفطرة التي خرج عليها من بطن أمه، دون تعلم ثقافة خاصة من ثقافات البشر حتى لو كانت من أمه. وهذا هو مقصد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه"[xlvi]، **فالأمية إذاً: هي الحالة المعرفية القرينة بالفطرة الصحيحة**. ومن هنا كان الإسلام دين الفطرة، ودين الأميين.

نعم؛ الأمية ليست إلا إجازة الانتساب الضمنية إلى أمة الإسلام. فهي الصفة الطابعة في قلب المسلم لقبوله المعرفي في جامعة القرآن والسنة مع النطق بالشهادتين، والتي معلمها الأول وباني قواعدها بهدى الوحي ورسالة الله سبحانه وتعالى هو محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وسلم رسوله ونبيه، ولغة التعليم **العام** في هذه الجامعة هي لغة الأمي البسيط؛ العجوز والشيخ والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط، كما أكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الذي أشرنا إليه سابقاً (حديث الأحرف السبعة).

ولم يكتب الرسول صلى الله عليه وسلم على باب الدخول إلى هذه الجامعة الإنسانية والعلمية الكبرى شيئاً من قبيل ما قيل أنه كُتب على بوابة أكاديمية أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) في أثينا، "لا يدخلن إمرؤ لا يعرف الهندسة"[xlvii]، فكان الشرط الضروري – والضمني في الحقيقة - للانتساب إلى أكاديميته تلك، هو معرفة الهندسة – أي الرياضيات في قالبها اليوناني القديم - ذلك القالب الذي نقله فيثاغورث (٥٧٠-٤٩٥ ق.م.) عن كهنة المعابد المصرية القديمة بعدما وقف على أبوابها عشرين عاماً حتى أُذن له بالدخول![xlviii]،[xlix]،[l].

وفيما نحن بصدده عن "الأمية"، نجد أن هناك فرق شاسع لا ينكره إلا جاهل بين إجازة القبول المعرفي كلغة للخطاب التكليفي العام للمنتسبين إلى هذا الدين البسيط، أي "الأمية" بمعناها الجميل، وبين شهادات الترقي فيه لمن وضعت له الملائكة أجنحتها في سعيه لطلب العلم. وهل ينكر عاقل الفرق بين متطلبات التسجيل لجامعة من الجامعات ولغة الخطاب الأولى لطلابها في سنينهم الدراسية الإعدادية من جهة، وبين شهادات التخرج منها والإجازات العلمية التي تمنحها لاحقاً للمتميزين في سلكها التعليمي كُلٌّ بحَسَبِهِ؟! ... وإن لم يكن من فرق، فأي جدوى من إنشاء ووجود تلك الجامعة أو الهيئة التعليمية؟!

وإذا قيل أن هناك هيئة تعليمية تقبل منتسبيها من أول مراحل التعليم وتصل بمن تأهل منهم إلى أعلى الخبرات والشهادات، فهل يعيبها أن توصف بأنها هيئة تعليمية أمِّية، باعتبارها دلالة على متطلبات الانتساب والصفة الغالبة على عوامهم وبُسطائهم ؟!

وإذا كانت أنظمة الخطاب في هذه الهيئة قد وُضعت للتخاطب مع كل الفئات المنتسبة، أفلا تكون بسيطة إلى الدرجة التي يعيها كل المنتسبين بمن فيهم أقلهم حظاً – وهم الداخلون لتوّهم - في بساطة النصوص والإرشادات والتعميمات والتوجيهات، وخلوِّها من تعقيدات المتخصصين،... إنها إذاً أنظمة أمِّية.

أوَليست أنظمة المرور في كل بلاد العالم قد وُضعت ليعيها كل أنسان قائد سيارة أو مُترجّل؟ - بلى إنها كذلك، ولإن كانت بشيء من التعقيد الذي يتطلب دراسة جامعية مثلاً لحُرِم شطر كبير من الناس في أشد بلاد العالم تحضراً من التعامل معها ومن ثم حرمانهم من فائدتها؛ لذا فأنظمة المرور أنظمة أمِّية، سواء حمل المرء المتبع لها أعلى الشهادات والخبرات العلمية أو كان ساذجاً بسيطا لا حظ له في القراءة والكتابة.

إن من يفهم قول الله تعالى "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ"، ثم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنا أمة أمية" على غير هذا المحمل، ويخلط بين متطلبات الخطاب العام للمسلمين، التي هي "الأمية" بمعناها الحقيقي المراد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين مشاريع هذه الأمة وبرامجها التعليمية للارتقاء الإنساني وتحقيق مراد الله في الأرض من استخلافه وتسخير الكون له، إنما يفهم "الأمية" على غير معناها. وهذا صحيح سواء ورد هذا اللفظ ومشتقاته في كتاب الله تعالى أو في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. ومثل هذا الفهم كمثل من يساوي بين المنتسبين الجدد لجامعة من الجامعات وبين خريجيها. فأي وظيفة للجامعة تؤديها إذا انتهت بما بدأت به؟! وأي فَهْمٍ هذا الذي يساوي بين خطاب الجامعة لطلبتها في مرحلة الإعداد، وخريجيها في مراحل التأهُّل، وباحثيها وعلمائها في مرحلة الاستثمار العلمي؟! .... أمّا إذا كان الخطاب عاماً للجميع،

فأي غرابة أن يكون على مستوى أدناهم؟!

إن ما يؤسَف له أن هناك من المعاصرين من قرن "الأميّة" بالضلال والظلامية، فقال[li]: [المعنى العام (للأمية) يعني الجهل والضلالة والظلام]. رغم أن صفة "الأمية" تطغى حيثما تقل المعرفة النظامية بغض النظر عن الجنس والعرق والمذهب والديانة. فإذا طغت على أي فئة من الناس أصبحوا أميين. وهذا يشمل أهل الكتاب أنفسهم. وحيثما تتعاظم المعرفة النظامية لدى أفراد أي فئة من الناس تتراجع فيهم صفة "الأمية"، وذلك هو المعنى الآلي لها، أي المؤشر [lii] indicator على مستوى النظام التعليمي. ومن ثم فـ "الأميين" مرحلة القبول الأولى في النظام التعليمي.

وبهذا التصور يمكن فهم العلاقة بين "الأمية" من جهة و"الكتابة والحساب" من الجهة الأخرى. فالمعرفة النظامية تتطلب بالضرورة تعلُّم الكتابة والحساب. فلفظ "الأمي" لا يكافئ "من لا يتعلم الكتابة والحساب"، ولكنهما صفتان، أحدهما وصفية والآخرى آلية، وتتطرد الصفتان معاً بالمعنى الإحصائي، أي أنهما مرتبطان correlated، فتخفت درجة الأمية الآلية بالتعلم النظامي، لكنهما غير متكافئتين. ولكن المعنى التربوي – وهو معنى فاضل - مستقل عن ذلك، وعن هذا المعنى سنلقي الضوء في الفقرة التالية:

المعنى التربوي الفاضل في "الأمي"

يكتسي أصحاب "الأمية" بساطة وسذاجة وعفوية وفراغ من التصورات الذهنية المُركّبة، والمذهبيات ذات العصبيات، وتبنِّي أصحابُها تمثل الشخصيات العلمية المتمقة، أصحاب البرهانيات، والاستدلالات، والمنطقيات، والجدل، والتفيهق، والسفسطة، وكل ذلك وأمثاله يتشكل بالقراءة والكتابة والنظر في الكتب، والتشكل الفكري بما تلقيه في روع القارئ والدارس بوعي منه أو بلا وعي. وبإرادة منه أو بلا إرادة. غير أن الأمي هو من لا يحمل هذه الصفات التي صنعتها القراءة والكتابة والحساب، وليس من لا يمارس هذه المهارات من كتابة وحساب على التخصيص. فإن برأ المرء من رديء هذه الصفات مع تعلمه الكتابة والحساب فقد تجمل بالأمية وتحلى بالروية وكان لين الشكيمه، وديع النفس، سهل، بسيط، قابل للحق، نابذاً للباطل من أقرب طريق.

وكثيراً ما يفقد المتعلم هذه المعاني الجميلة في الأمية، وللغرابة الشديد، بسبب من التعلم، وهذا ما قصده القرضاوي حين قال[liii]: [مع أن الذين يشتغلون بالقضايا العقلية، والمجادلات الكلامية يصابون بجفاف الروح وقسوة القلوب إلا من رحم ربك، فمن القلائل الذين احتفظوا بقلوبهم حية لم تمت، سليمة لم تسقم، صافية لم تشب، إمام الحرمين (الجويني)]، والشاهد في

هذا الاقتباس ما لتأثير التعليم من صبغ المتعلم بما يشوش على رؤيته الفطرية ومنطقه السوي المباشر، والذي يتجاهله التعليم، ويصقل الأخرى التي له فيها حرفة. و"الأمية" التي هي المرحلة قبل-التعليمية تتزن فيها قوى العقل والقلب، وتكون أكثر اتزاناً واتساقاً تجاه ما يسمع الإنسان بلا تحيز ولا تشويش.

وقد بدا هذا المعنى جلياً في ما وقع في أيدينا من تراث أحد المستشرقين نغبطه على اكتشافه، ونعرضه بنصه في الفقرة التالية:

"فضيلة الأمية"، هل التقطها لويس ماسينون، وأخطأها المسلمون؟[liv]

تحت عنوان فرعي "شهادة العامة وشهادة الخاصة"، يقول ماسينون[lv]: "أعني بـ (العامة) كل أمّي (illétré) من الأمّة (peuple)، وأعني بـ (الخاصّة) كل مؤدّب (lettré) (في الحاشية: المؤدب هو المثقف المتعلم). شهادة الأمّي شيء أصح، لأنه يحكي ما يحس بدون إخفاء وبدون قصد، أمّا الأديب فهو صاحب نظريات عقلية يقصد في حكاياته كلها تحقيق ما توهم. النظريات عنده في مقام أرفع من العمليات، والأفكار (idées) أرفع من الأفعال (faits).

فالأمية ليست الجهل إذاً، وإن لم يحفظ أهلها العلم بعد، وليست الضلال وإن كان في أصحابها شيء من السذاجة والبراءة. إنها الذكاء الفطري، والحدس التلقائي، والعفوية الندية، مع تفهُّم بسيط لمعنى الحياة بألوانها، والناس بمعادنهم، وعلم فطري لا عصبية فيه، ولا فرح ولا غرور ولا زهو ولا تحيز.

البرنامج التربوي للأميين الذي يؤهلهم علمياً ويحفظهم على نداوتهم تربوياً

جاء المنهج التربوي الإسلامي ليتسلم "الأميين" على ما جاء وصفهم أعلى – حتى وإن كانوا علماء مهرة قبل ذلك - ويتولى ويصيغ المنهج التعليمي والتربوي تباعاً، وجاء هذا المنهج معتمداً على النصوص الآتية: قوله تعالى (والذي ينص صراحة على "الأميين"): "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"(الجمعة: ٢)، ويترافق مع هذه الآية قوله تعالى (وإن لم يرد فيه لفظ "أميين"):"كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ"(البقرة: ١٥١)، وقوله تعالى "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"(آل عمران :١٦٤)، وقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام:"ربنا وابعَثْ فيهم رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِك وَيُزَكِّيهِمْ إنك أنت العزيز الحكيم"(البقرة : ١٢٩)

والمنهج الذي ترسم هذه الآيات معالمه، هو كالآتي:

١- تعليم قراءة القرآن (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ): ونشأ عن ذلك نظام القراء، فكان المسلم في تلك المرحلة إما أمياً أو قارئاً، ويكاد أن يكون هذا هو الوصف الوحيد لـ"الأمي" على سبيل الاصطلاح والتصنيف ضمن منظومة معرفية تربوية[lvi].

٢- التزكية الأخلاقية: (وَيُزَكِّيهِمْ) ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى "ويزكيكم"(البقرة:١٥١)، وقوله تعالى: "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا"(الشمس:٩)، وجاء عن الشيخ محمد الغزالي قوله[lvii]: "والتزكية، وهي أقرب الكلمات وأدلها على معنى التربية ؛ بل تكاد التزكية والتربية تترادفان في إصلاح النفس، وتهذيب الطباع، وشد الإنسان إلى أعلى كلما حاولت المُثبطات والهواجس أن تُسِفَّ به وتعوجّ".

٣- تعليم القراءة والكتابة واللغة والحساب (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ)، والمتدبر لآيات القرآن يجد أن متعلمه سيجيد ١٤ حرفاً من أبجدية القرآن (الحروف المقطّعة)، وعليه أن يستكمل الباقي، وسيتعلم العمليات الحسابية الأولية من أعداد وكسورها ومضاعفاتها وتقسيمها والجمع والطرح[lviii]، ومن آيات المواريث سيتعلم ما أصبح يعرف بعلم الجبر. والجدير بالملاحظة أن محمد بن موسى الخوارزمي قد شمل في كتابه الذي أسس هذا العلم وبما شهد له العالم حتى اليوم بلا منافس، لتطبيقه في علم المواريث، وليس أدل على ذلك من أنه شرع في الفصل الأخير من الكتاب في تطبيق قوانين الجبر وطرقه في مسائل علم الوصايا والمواريث، وعلى نحوٍ مُفصَّل استغرق حوالي نصف الكتاب[lix].

٤- تعليم الفقه والأحكام والقياس (وَالْحِكْمَةَ).

يتبين من ذلك أن مرحلة "الأمي" هي مرحلة القبول في المدرسة الإسلامية، وسواء كان المتقدم للقبول صغير السن أو كبيرا، له خبرة تعليمية سابقة أو لا، غير أن صفته، أي درجته التعليمية أنه "أمّي" في حكم مدرسة القرآن؛ أي: على الفطرة والنضارة الفكرية. فإن كان ذو خبرات واسعة، فعليه أن يراجعها ويعيد بنائها على ضوء ما سيتعلمه، مثله مثل المبتدئ تماماً، إلا أنه أكثر مراساً، ولكن هذا لا يخرجه عن أن يكون أمياً في التقييم التربوي.

النظام التعليمي الإسلامي القائم على المرحلة الأولية "تأهيل الأمية": هو أساس النظام التعليمي العالمي[lx]:

المراحل التعليمية السابق ذكرها شرحاً لأيات القرآن هي التي أُنشئ عليها النظام التعليمي المألوف لنا الآن، فاقرأ إن شئت ما كتبه ابن سينا[lxi] في تعيين ابتداء التعليم وفن التربية حين قال: [إذا بلغ عمر الطفل ست سنين، يقدم إلى المؤدب والمعلم، ويُدرّج في ذلك، ولا يُجبر بملازمة الكتاب كرةً واحدة.]

وقال أبو بكر ابن العربي[lxii]، واصفاً التعليم بالمشرق: [للقوم في التعلم سيرة بديعة؛ وهي أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه إلى

المكتب (وهو إسم آخر مشهور لـ "الكُتّاب")، فإذا عبر المكتب أخذه بتعليم الخط والحساب والعربية، فإذا حذقه كله أو حذق منه ما قدر له خرج إلى المقرئ فلقنه كتاب الله، فحفظ منه كل يوم ربع حزب، أو نصفه، أو حزبا، حتى إذا حفظ القرآن خرج إلى ما شاء الله من تعليم العلم أو تركه .ومنهم وهم الأكثر من يؤخر حفظ القرآن، ويتعلم الفقه والحديث، وما شاء الله فربما كان إماما، وهو لا يحفظه، وما رأيت بعيني إماما يحفظ القرآن، ولا رأيت فقيها يحفظه إلا اثنين، ذلك لتعلموا أن المقصود حدوده لا حروفه؛ وعلقت القلوب اليوم بالحروف، وضيعوا الحدود، خلافا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه إنفاذ لقدر الله، وتحقيق لوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبيين لنبوته، وعضد لمعجزته.]

ولماذا نتأخر حتى ابن سينا وابن العربي، فهؤلاء صحابة رسول الله يحضرون الكُتّاب يتعلمون الكتابة، ففي "طبقات ابن سعد" عن عثمان ابن عبيد الله قال[lxiii]: [رأيت أبا أسيد (يقصد الساعدي) وأبا هريرة وأبا قتادة وابن عمر يمرون بنا **ونحن في الكُتّاب** فنجد منهم ريح العنبر وهو الخلوق ويصفرون به لحاهم]. وقد كان التعليم منتشراً بالمدينة لقربها من مناطق حضرية انتشر بها التعليم في شمال الجزيرة العربية، وأيضاً بسبب تواجد اليهود، وقد كانت لهم مدارسهم وأنظمتهم التعليمية، [ولعل نظام الكتّاب هذا قديماً وليس مستحدثاً في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، أو بُعيد وفاته كما دل عليه حديث عثمان ابن عُبيد الله السابق، فقد يكون المسلمون قد حاكوا اليهود في دور التعليم وأنشأوا كتاتيب خاصة بهم][lxiv]. ومن شواهد ذلك [وجود نظام تعليمي يهودي في المدينة أن دور العبادة اليهودية كان يطلق عليها (المدْراس) لقيامها بالتعليم العام مع التعليم المدني][lxv]، ولا غرابة أن يجمع اليهود بين ما جاءهم به موسى والنبيون من وحي وعلم، وما اقتبسوه من طرق الكتابة وأدواتها في مصر الفرعونية، مذ عاشوا فيها بين عهدي يوسف وموسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام. وليس بمستغرب أن يلتحق الغلمان من أبناء العرب بدور التعليم اليهودية لتعلم الكتابة والحساب، أو أن يُنتدب منها من يعلمهم، أو من يسكن المدينة من عرب الحيرة، ونذكر ما يعضد ذلك من طبقات ابن سعد أيضاً؛ ما جاء على لسان أنس أبن مالك رضي الله تعالى عنه، حين قال: [أخذت أم سليم بيدي عند مقدم النبي، فأتت بي رسول الله، فقالت: يا رسول الله، هذا ابني، وهو **غلام كاتب** ... ونقل ابن سعد في موضع آخر، قالت: يا رسول الله: خويدمك...[lxvi][lxvii]. وفي ذلك أدلة على أن "الأمية" ليست ذات دلالة مباشرة على عدم الكتابة والحساب، أي:ليست "عَلَماً بالغَلَبَة" على ذلك، كما يقول أهل اللغة، فالتعليم لم يكن منعدماً، بل إننا لو تتبعنا المناخ الثقافي لعرب الجاهلية في الجزيرة العربية لوجدنا شيوع النظام التعليمي – وخاصة مع دوام التجارة ومواسم الحج والعمرة ووفود الشعراء- بما يتنافى مع الادعاء بأن أميتهم تعني "عدم الكتابة والحساب" على المعنى الحرفي، وهناك من أغنانا عن بيان ذلك، فيُرجع إليه[lxviii]، حتى أنه سمّى المكّيّين الذي كانوا قارئين كاتبين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم – كلٌّ بدليله مما طفت بذكراهم الأحداث - ووصل بهم إلى واحدٍ وستين نفساً[lxix]، وقد استثنى

آخرون لم يستبعد أنهم كاتبون لقرائن تُزكّيهم، منها أنهم من أشراف مكة وشعرائها.

الفرق بين الأمي والجاهل

يظن كثير من الناس، بل كلهم إلا نفرٌ قليل – خطأً – أن الجهل هو عدم العلم، وأن الجهل، من ثمّ حسب فهمه، مرادف للأمية، وهذا غير صحيح. غير أن ابن منظور يقول: "الجهل نقيض العلم ... والجهالة أن تفعل فعلاً بغير العلم"، وهذا يفيد أن الجهل مصحوب بفعل، فمن لم يكن يعلم، وبقي على عدم علمه وسجيته الفطرية، لم يُسمّى جاهلاً، بل يسمّى أُمّياً، فإن فعل فعل الظن والتصور والحسبان والاعتقاد، ثم بنى على ذلك فعلاً وسلوكاً واعتقاداً ثم لجاجاً وجدلاً وخصومة - كلٌّ بحسبه - ، وكان كل ذلك عن عدم علم، كان ذلك هو "الجاهل" بعينه. وأدلة ذلك من القرآن عديدة، فلا تجد فيه من لفظ الجهل ومشتقاته إلا ما صاحب فعلاً – وإن كان ظناً - وكان على خلاف العلم الصحيح. وقد حصرنا من ذلك في القرآن ٢٤ موضعاً من مشتقات "جهل" فما وجدنا شذوذاً عن هذا المعنى الذي خلصنا إليه، لذا فالجهل والجهالة مَذمّة، تَبْرَأُ منها الأُمّية. وجاء في الحديث[lxx]: "إن من العِلْمِ جَهْلاً"، قيل[lxxi]: وهو أن يتعلم ما لا يحتاج إليه كالنجوم وعلوم الأوائل، ويَدَعَ ما يحتاج إليه في دينه من علم القرآن والسنّة، وقيل: هو أن يتكلف العالم إلى علم ما لا يعلمه فيُجَهّله ذلك". وقال أبو البقاء الكفوي[lxxii]: "الجهل : يقال للبسيط، وهو عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالما، ويقال أيضا للمركب، وهو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق، سمي به لأنه يعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه، فهذا جهل آخر قد تركبا معا". ونُرجّح أن المقصود بالجهل البسيط هنا، هو ما كان مصحوباً بالظن فقط غير المتعدي لفعل، وعندئذ يتفق هذا التعريف مع تحليلنا باعتبار الظن فعل عقلي ورأي يسكن إليه صاحبه عن لا علم، أما الأمي، فهو على السجية، فلا يظن ولا يرجح شيئا، بل هو إلى البراءة، وحسن الظن أقرب.

ومن تجارب المعاصرين الغربيين وشهاداتهم على أنفسهم، ما أُثر عن "نيلز بور"، وهو العالم الفيزيائي الشهير في بدايات القرن العشرين في وضعه لنموذج لتركيب الذرة، والحاصل على جائزة نوبل عام ١٩٢٢، أنه قال في هذا الشأن ما ترجمته الحرفية[lxxiii]: "من الأفضل لك أن لا تصل إلى فهم شيءٍ ما، فهماً صحيحاً، عن أن تفهمه فهماً خاطئاً"، وهو ما يقابل في لغتنا العربية على الاصطلاح اللغوي الذي رجحناه أعلى:"من الأفضل لك أن تكون أُمّيّاً عن أن تكون جاهلاً". ويتضح بجلاء من هذا القول أن الظن بالفهم هنا، فعلٌ زائدٌ عن عدم العلم، وإلا لما أمكن المفاضلة بينهما، ومن ثم فالظن الغير مؤسس على العلم ولو بالترجيح هو "الجهل" (البسيط: باصطلاح "الكفوي"). وقد نفهم من ذلك فهماً أفضل للحكمة البليغة في قول الله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ"(الحجرات: ١٢). ويبدو لنا أن "كثيراً من الظن" هنا تؤول إلى حالات الظن التي تخلو من أي ترجيح معتبر، أو قرائن قوية، أو مواطن تتطلب الترجيح لأخذ قرارٍ (أي: حُكمٍ)

ضروريٍ لا يمكن تأخيره. أما إذا وصلت القرائن إلى مستوى الأدلة والبراهين، فقد دخل الاجتهاد هنا منطقة العلم، وهنا لا حرج من كثرة الظن (لأنه سيصبح عندئذٍ علما)، بل هو مندوبٌ إليه.

الوجه الثالث: الأمية فئة باقية في كل مجتمع من الناس ولا تزول بالكليّة

نأتي الآن إلى الوجه الثالث من وجوه معاني "الأمية"، وهي ما يشير إليها قول الله تعالى " وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ"(البقرة: ٧٨). وعلة الأميّة هنا منصوص عليها، وهي أنهم "لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ"، ونقول أن ذلك ليست تعريفاً للأمية، بل هو محض تعليل لمراد الأمية فيهم، وفيما هو شائع من ثقافة ذلك العصر، من أن غير الأمي هو الدارس للكتب الخائض فيها، وحيث أن كتاب الوحي كان الكتاب الأول عند اليهود، فمن يعلمه جيدا كان غير أمي. وهذا المعنى الذي نُرجّحه يقطع الطريق على حجةٍ، قد تتكرر هنا ممن قال في رفضه في معنى "الأمية" أن يكون معناها "تجهل الكتابة والحساب"، فيقول أنه لو كان الأمر كذلك لآلت بنا الآية إلى المعنى: ["إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب"="إنا أمة تجهل الكتابة والحساب، لا تكتب ولا تحسب"، ومن ثم يكون تكرار لا معنى له][lxxiv]، وإذا طبقانا حجته هنا في قوله تعالى " وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا .. "= وَمِنْهُمْ من لا يعلمون الكتاب لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا .."، وهو تكرار أيضاً. ولو صحت حجته هناك لصحت هنا. ولأنها هنا لا تصح، فكذلك كانت هناك غير صحيحة. ونقصد أننا رغم موافقتنا على أن الأمية ليست صفة من لا يعلم كتاب الوحي على التخصيص، مثلما أنه ليس من تعريفها أنها صفة من لا يعلم الكتابة والحساب على التخصيص، إلا أن الأمية صفة في (النفس المعرفية) لصاحبها تَطَّرد مع عدم التعليم النظامي لكتب الوحي أو غيرها، وتَطَّرد مع عدم تعلم الكتابة والحساب، إذ أن تعلم هذا أو ذاك يفتح الباب أما ثقافات تعليمية خاصة، والأمية هي الخلو من تلك الثقافات التعليمية الخاصة التي وسائطها التعليم وأدواته. لذا فالعلاقة علاقة اطراد عكسي بين الأمية وما يؤدي إليه التعلم الكسبي من صبغ النفس بفلسفةٍ ما وراء التعليم.

وعلى ذلك، فمثلما أن الأمية ليست صفة الخلو من الكتابة والحساب على التخصيص، وأنها ليست عدم العلم بكتاب الوحي على التخصيص، فهي كذلك ليست منفصلة على هذه المهارات انفصالاً تاماً على نحو ما أراد الجابري في حُجَّته السابقة، والعلاقة بين الأمية من جهة، وتلك المهارات من جهة ثانية، هي أن هذه المهارات مؤشرات على المقياس الآلي للأمية، غير أنها ليست مهارات لازمة، وإن كانت مشهورة، بمعنى أننا قد نجد من لا يكتب ولا يحسب وهو غير أمي، و أنه لا علم له بكتب الوحي، وإن كان هذا من النادر وجوده في مجتمعاتنا، إلا أنه غير منعدم. والذي جعل مثل ذلك غير أمي، أنه قد يكون من أصحاب النظر والفلسفة والخطابة، فهو ممارس للفكر بشكل ما ويحمل فلسفة، ومن ثم يحمل مؤهلات غير الأميين، رغم أنه قد

لا يكون ذا علم بوحي صادق، ولا قارئ وكاتب للكتب.

وإذا كان (تعلُّم القراءة والكتابة والحساب، وكتب الوحي، وما أنتجه الإنسان من كتب، وملازمة هذه المهارات على الدوام) مؤشرات على عدم الأمية، فلنا أن نسأل: ما هي نسبة الأمية في أي مجتمع من البشر، وهل هي منعدمة في أي من هذه المجتمعات؟ - الإجابة بالقطع أنها غير منعدمة، وإن تفاوتت على ما نحو ما تدل مؤشرات التعليم في الدول المختلفة، غير أن هذه المؤشرات المشهورة مؤشرات على مهارات بعينها دون كل المهارات الممكنة، ومن ثم فهي تقريبية إلى حدٍّ كبير فيما نُعنى به من معنى أوسع للأمية.

ويظهر لنا في شكل (١) تصور للعلاقة بين "الأمية" باللون الرمادي، وغير الأمي بلون زاهٍ، ويُمثل كل لون من الألوان تخصص من التخصصات الفنية التعليمية الممكنة.

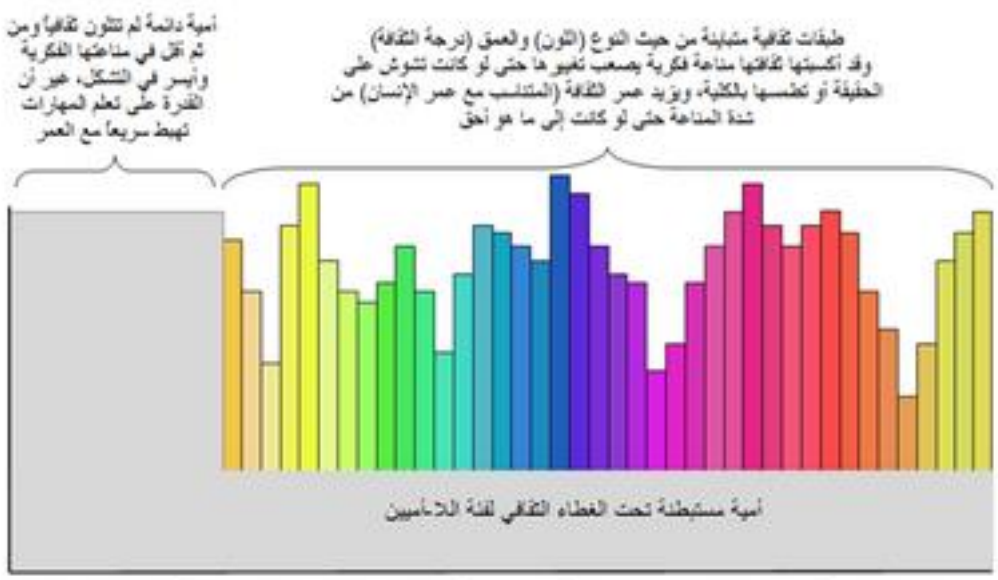

شكل (1): توزيع الأمية في مجتمع ما، ما بين أمية لم يتلق أصحابها تعليما اكتسابيا يصبغ أفكارهم ويلونها بلون خاص وبقيت ثقافتهم رمادية، (أيسر الشكل)، وما بين أمية مستبطنة، غطتها طبقة ثقافية بلون خاص يعتمد على نوع المكتسب التعليمي. فكل قطاع رأسي يمثل طوله النسبة من المجتمع التي تحمل هذه الثقافة الخاصة، وقدر ما تستبطنه هذه الفئة من أمية دفينة تحت طبقة ثقافتها الخاصة، والتي تعود إليها إذا تحررت من تلك الثقافة، وهو أمر نادر الحدوث وبالغ الصعوبة، إلا مع من لم يتقدم بهم العمر، وقبل أن يقعوا أسرى ثقافات فضلّوها أو أمليت عليهم.

ومن الشكل يتبين التصور للعلاقة بين (الأمية) و(اللا-أمية). فالأمية ذات لون واحد رمادي. وواحدية اللون تعني واحدية

الثقافة، وهذه الثقافة هي ما قبل التعليم النظامي، ومصدرها هو البيئة الخالصة والتجارب الأولى للإنسان في طفولته والتي مثلت حضانة الأم لأطفالها الوعاء الثقافي الرئيسي، ومن ثم تدعم هذه الصورة أن مصدر مفهوم "الأمية" هو لفظ "الأم". والملاحظة الثانية أن اللون الرمادي يجمع بين البياض الذي هو الصفاء الخالي من التمييز التنظيري، والسواد الذي هو عدم الفهم لمجريات الأحداث والظواهر وعلل الأشياء. ومن ثم، يُعبِّر هذه اللون عن محتوى الوعي لدى الأمي. أما زهو ألوان (اللا أمي) فمن الواضح أنه يحمل معنى الزهو النفسي من جهة، ومن ثمَّ شيء من الغرور والعُجْب، وهو من مذمومات التعليم، ويحمل ثانياً قدر التنافر بين الألوان المختلفة في نظرتهم وتصوراتهم للأمور والحياة. وهذا التنافر يشير بوضوح إلى أن نظرة الثقافات التعليمية غير متسقة فيما بينها، ويظهر ذلك على أشده في الفلسفات المختلفة. وهذا مرجع اختلاف أحكام أصحابها على مسائل مشتركة. وإذا كان هذا في أمور الحياة العامة والظواهر المشتركة، فماذا يكون الحال لو أن المسائل المشتركة تتناول الدين وغاية الحياة وما وراءها والحقوق والعدل والأخلاق والضبط الاجتماعي والسلوكي. هنا تسقط تلك الألوان جميعاً، نقصد الثقافات المختلفة وآراءها المتمايزة، ولا يبقى إلا اللون الرمادي القابع في كل إنسان ليستلم من ربه قانونه السماوي ودينه الواحد الذي إن أراد السلامة آمن به. وهذا اللون الرمادي الواحد هو "الأمية". فالله تعالى يخاطبنا – في محكم آياته - بلغة الخطاب الأمي لكونه الثقافة الوحيدة المشتركة بين الناس، وليس العرب وحدهم. وهذا هو ما نفهمه من قول الله تعالى "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ..." فانبعاث الرسول صلى الله عليه وسلم كان وما زال لتلك النفس الأمية القابعة داخل كل منا، فيها البراءة الأولى (اللون الأبيض)، وفيها التساؤل وطلب الفهم (اللون الأسود)، فهؤلاء هم المخاطبين المقصودين والمستهدفين من وحي الله وهديه للإنسان. ومن كان ذا ثقافة خاصة اكتسبها من كتب وتنظير وتفلسف وحساب وألاعيب عقلية، فليكشط كل هذا وليقف أمام محمد صلى الله عليه وسلم كالطفل الصغير (الذي لا يحمل إلا ثقافة الفطرة التي رضعها مع حليب أمه) يستمع منه إلى كلام الله تعالى المُنزّل من السماء بأمره سبحانه، ليهدي هذا الإنسان الضائع. ألم يقل الله تعالى في الحديث القدسي "كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم"[lxxv] وكلكم هنا تشمل كل إنسان وبما يشمل حملة الثقافات التي هم بها فرحون، يتبطرون ويمرحون، وهم في ذلك أقرب إلى قارون.

وإن أراد منهم أحدٌ أن يطاول دين الله ظناً في نفسه العلم والتعالم على غير نظير، فقد قال لمثله رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه"[lxxvi]، وغرض الحديث، أن هذا الدين يُسر للناس لأمَّيهم وعالِمهم على السواء، فلا يتحامقن أحدٌ أنه أوتي علماً يُشادد به الدين، فدين الله تعالى أشد، لأنه دين الله الخالق العليم الحكيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ومن يتولَّ إخراج هؤلاء من أميتهم الرمادية تلك، إنه الله تعالى أيضاً بما قاله سبحانه عقب ذلك: "..يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" وقد بيّنا ذلك في فقرة سابقة. هذا هو الخروج الآمن من الأمية التعليمية، وما ينبني من ثقافات خاصة ومهارات وصناعات واحتراف وأفهام وتنظير واجتهاد، وذلك على هذا الهدى والتعليم الإلهي وفقط في إطاره ودون الحيود عن مساره، فهو التعليم الذي خير مثال له كان محمداً صلى الله عليه وسلم. ألم يقل له الله تعالى "وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا"(النساء: ١١٣). وليس النور لمحمدٍ فقط، بل للمؤمنين جميعاً، كما قال الله تعالى "قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"(المائدة:١٥-١٦) ويتحول عندئذ، وفقط عندئذ، اللون الرمادي إلى اللون الأبيض، كلٌّ بحسب حرصه – نيّةً وعملاً - وتوفيق الله له؛ لذا، فلا بد لأي ثقافة خاصة أن تنبني على هُدى من الوحي، وبما أمر الوحي الاجتهاد فيه من أدوات التجريب والنظر والاجتهاد.

الأمية، لا تنمحي من أي مجتمع وإن تضاءلت وتضاءلت

وفيما نحن فيه من معنى "الأمية" (أي الوجه الذي نناقشه من أوجهها السياقية)، وهو أنه ما من مجتمع إلا وفيه نسبة من الأميين، من مثل من قال الله تعالى في شأنهم من أهل الكتاب "وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ"(البقرة: ٧٨)، فهذه الفئة لا تزول في أي مجتمع زوالاً تاماً. والأمية العامة هنا والتي تتسق مع مراد الآية، هي عدم امتهان الثقافة الحَرْفِية الخاصة، فالقراءة والكتابة والحساب، وبما اكتسبت - في شكلها المجرد عن المذهبيات المحمولة على الكلام المكتوب والحساب المحسوب - أصبحت أدوات لتغطية أو محو الأمية لمن يتقنها. ولا تبدأ الأمية الحقيقية في التراجع إلا مع تبني الإنسان ثقافة خاصة مستخدماً آليات القراءة والحساب التي تعلمها، وبدأ يتلون بها فكره، ويبدأ في الحصول على إجابات لأسئلته الكثيرة، صحيحة كانت أو خاطئة. فإن كانت الإجابات موافقة للحقيقة، والوحي الصادق كله كذلك، فهو إلى اقتراب من اللون الأبيض،وإن كانت الإجابات ذات ألوان أخرى يضيفُها شيئاً من البياض، فهو إلى اختلاطٍ من الحق والباطل. ولا شك أن نسبة كبيرة من الناس - بناءاً على هذا التحليل – أُميّين، لِبُعدهم عن التنظير والثقافات الملونة، حتى وإن كانوا كتبة حاسبين، بما يخدع الواهم بأنهم للثقافة حاملين، وأن هذه النسبة لا يمكن أن تنمحي حتى في أكثر المجتمعات حِرفِيَّة في الوسائل التعليمية.

نمذجة العلاقة (الأمية -اللا أمية) في أي مجتمع:

سنعمد الآن إلى نمذجة علاقة رياضية تشرح انقسام كل مجتمع إلى جزئين (أُمّي / لا-أُمّي)، لنرى كيف تتغير هذه العلاقة من

مجتمع لآخر، وكيف تتغير داخل المجتمع الواحد، وكيف أنها لن تصل إلى محو كامل للأمية مهما كانت المحاولات، وما ينتج عن ذلك من تفنيد ادعاء من زعموا أن الأمية قد زالت عن الأمة، ومن ثم يجب أن تلجأ إلى الحساب الفلكي، وتطرح رؤية الهلال كعلامة على دخول الشهر العربي.

ويمكننا في الشكل (٢) تصور الفرق بين الأمية و (اللا-أمية) على أن اللا-أمية هي انبعاث حراكي للأميين بفعل التثوير الفكري، بوسائله المختلفة، التعليمي من قِبل مؤسسات التعليم، والتثقيفي من قِبل وسائل الإعلام المختلفة، ومن ثم فسوف نقابل بين (انبعاث اللا-الأمية والأمية) من جهة، ونموذج ديناميكي هو (الإلكترونات المستثارة، والإلكترونات الخامدة) في مادةٍ ما. فالإلكترونات الخامدة تقابل فئة الأميين، والمستثارة بفعل ارتفاع درجة الحرارة عن الصفر المطلق تقابل فئة (اللا-أميين) ونوع المادة يقابل نوع المجتمع الذي يجري فحصه، ودرجة الحرارة المسئولة عن الاستثارة الإلكترونية تقابل التثوير الفكري الجاري في المجتمع.

وإذا كان الفكرة المبدئية أن كل مجتمع ينقسم إلى أميين ولا-أميين يمثلون كامل المجتمع، فلا بد أن يكون مجموع النسبتين ١٠٠% الممثلة لكل المجتمع، لذا سنضع هاتين النسبتين على الصورة المبينة في شكل (٢)

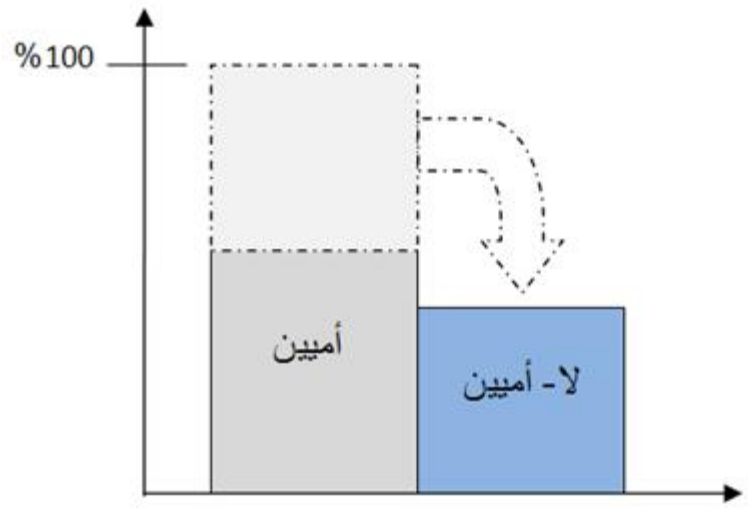

شكل (2): توزيع المجتمع بين فئتيه: (أميين) و (لا-أميين)

تمهيد للنمذجة التعليمية لمجتمع ما

تعمد المؤشرات العامة[lxxvii] للأمية (التعليمية) إلى الاستدلال عليها كنسبة من المجتمع اعتماداً على نسبة المقيدين في المدارس، وتعمد إلى نفس الأسلوب في تقسيم المراحل التعليمية المختلفة أيضاً، ومن ثم تتنبأ بالنسب المئوية المختلفة بين الأميين وغيرهم، وبين مستويات التعليم المختلفة، وتجيء دوالها المميزة للظاهرة التعليمية في المجتمعات كدوال منفصلة، كما هي مبينة أعلى في شكل (٢).

ولكننا سنعمد الآن إلى اختراع دالة رياضية تعبر عن نفس العلاقة السابقة ولكنها ستكون أفضل حالاً في كونها دالة اتصالية في الظاهرة، فيظهر منها أن هناك تفاوت بين الأميين، مثلما أن هناك تفاوت بين اللا-الأميين، وأن هذا التفاوت اتصالي، وهذا ما يتضح في شكل (٣)

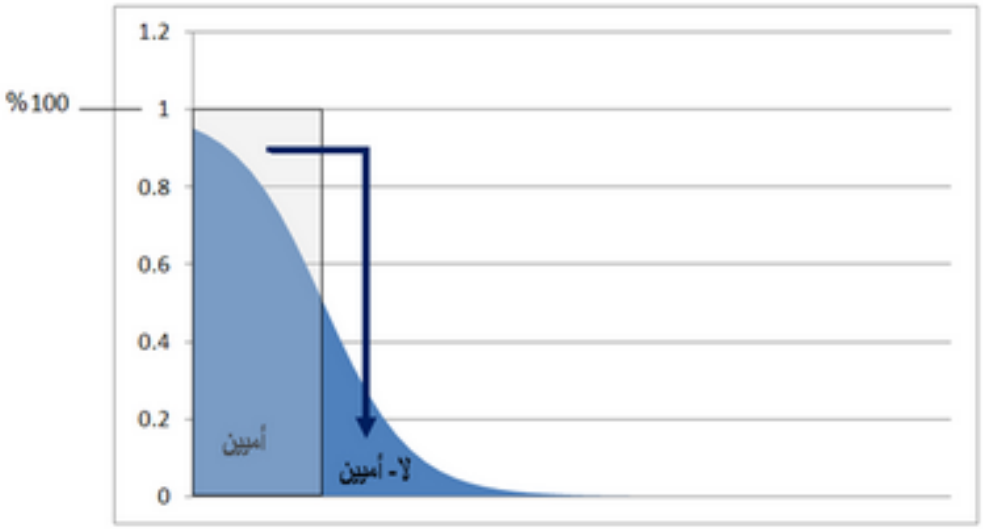

شكل (3): نظراً لوجود تفاضل داخل فئة اللا-أميين في مستويات التعليم ، وكذلك الحال داخل فئة الأميين، فالمنحنى المبين هنا أقرب في الدلالة الواقعية على مستويات الأمية، واللا-أمية عبر دالة اتصالية واحدة، تُمثل كامل المجتمع (إذا أخذنا تكامل الدالة على كامل المنحنى على أنه الوحدة الكاملة ، أي: 100%)

ويبدو من الشكل أن فئة (اللا-أميين) قد خرجت أو انسكبت من فئة (الأميين) بفعل (الاستثارة التعليمية). كما يبدو أيضاً أن كل فئة منهما تتمايز داخلياً، وأن هذا التمايز تقل نسبته مع الارتقاء في التعليم، فالأوفر حظاً أقل عدداً، وهكذا في كلا الفئتين.

هذه الدالة ليست من اختراعنا في الحقيقة، بل هي دالة مشهورة وتسمى (توزيع فيرمي-ديراك). وقد اقتبسناها هنا لأن المتغيرات التي تتعامل معها الدالة تشبه لحد كبير جداً المتغيرات التي نتعامل معها هنا، وذلك باستخدام الحس/الملكة العلمية في تفهمنا للظاهرتين، وذلك كالآتي:

فما قصدنا منه المجتمع بكامله، يقابل في هذه الدالة المستطيل القائم والمعبر عن كامل أفراد المجتمع وهم في حالة أمية كاملة ١٠٠% قبل الاستثارة العلمية، ويمثل في نفس الوقت كامل اللون الأزرق بعد الاستثارة العلمية، ويعبر عند واضعي هذه الدالة الرياضية عن كامل عدد الإلكترونات في قطعة من المعدن.

وما قصدنا منه فئة الأميين، فيقابل الجزء المملوء داخل المستطيل، ويقابل عند واضعي الدالة الرياضية نسبة الإلكترونات الخامدة (غير المستثارة) في قطعة المعدن.

وما قصدنا منه فئة اللا-أميين فيقابل الجزء المنسكب من المستطيل، والذي سال منه ناحية الارتقاء التعليمي النظامي. ويقابل عن واضعي الدالة الرياضية نسبة الإلكترونات المستثارة في قطعة المعدن.

وما قصدنا منه (الاستثارة العلمية) التي تنقل المجتمع من ١٠٠% أمية إلى توزيع بين الأمية و اللا-أمية، فيقابله ارتفاع درجة حرارة قطعة المعدن والتي تَسَبَّب عنها أن اسْتُثِيرَت نسبة من الإلكترونات وظل الباقي خامداً.

والآن: إذا زادت درجة الحرارة، وفي حالتنا زادت الاستثارة العلمية بمزيد من التعليم والوعي والحرص عليه، ما الذي يحدث؟ يظهر في شكل (٤) استثارات متتابعة تنقل المجتمع على سلم التدرج التعليمي بما ينخفض معه نسبة الأميين على التتابع.

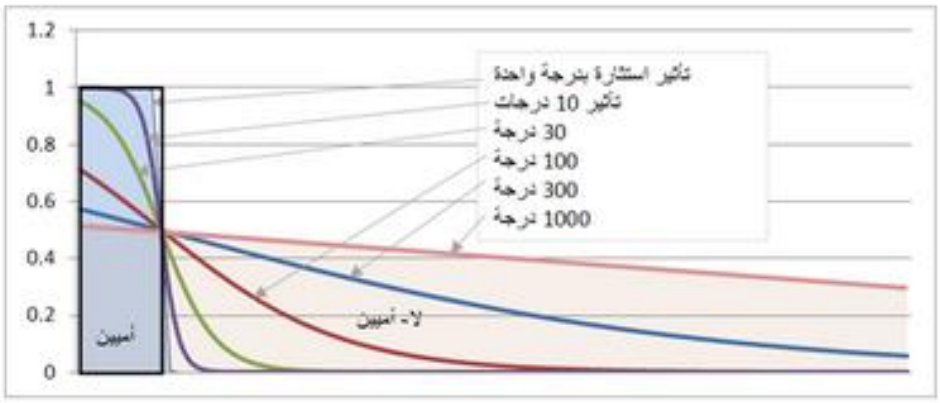

شكل (4): توزيع المجتمعات على فئتي (الأمية/اللا-أمية) عبر دالة رياضية مقتبسة من ظاهرة فيزيائية تتشابه في متغيراتها مع متغيرات الظاهرة التعليمية في أي مجتمع

ويتضح جلياً من هذه التوزيعات أن نقل المجتمع إلى (اللا-أمية) الذي شرحنا معالمها أعلى وكما يدعو إليها الدين من معرفة صحيحة وخبرة علمية نافعة – يتميز بخاصيتين واضحتين:

١- أن العلاقة ليست خطية، بمعنى أن مضاعفة نسبة اللا-أميين تزيد كثيراً عن ضعف (مثلَيْ) الجهد المبذول في استثارة النسبة الأولى، بمعنى أن الوصول إلى ٢٠% (لا-أمية) أكثر كثيراً من ضِعف الوصول إلى ١٠%.

٢- (وهذا هو بيت القصيد) أن محو الأمية والوصول بها إلى صفر% من المجتمع، أمرٌ غاية في الاستحالة، لأن ذلك يتطلب تفريغ المستطيل المبين في الشكل (٤) أعلى من أي لون بداخله. وقد بدى أننا لما بذلنا ١٠٠٠ ضعف تبقى في الصندوق بعض اللون (وإن كان سيمثل نسبة ضئيلة بالطبع من كامل اللون داخل وخارج المستطيل، أي من كامل عدد أفراد المجتمع. وهذا هو استدلالنا على أن القائلين بأن الأمية (بالمعنى الذي أردناه) قد زالت عن المجتمع المسلم بما يعفينا من رؤية الهلال. أما وقد استدللنا أننا حتى لو قبلنا أن الأمية هي الأمية التعليمية، فإن زوال الأمية محال. فما بالنا بالا-أمية التي تحافظ على فضائل الأمية من صدق المعرفة العلمية؟! وخلوها من المذهبيات، ... إلخ. ومن ثم فلا زوال للأمية التعليمية زوالاً تاماً، ولا راد لأمر الله من أن تبقى الثقافة الدينية التي يولي الدين بها اعتباراً هي ثقافة الأميين حتى لا تستثني منها أحداً من شعائر الله وفروضه.

وأي ريبٍ من عدم زوال الأمية – إذا افترضنا جدلاً أنها شيء غير مرغوب فيه بالمعنى التعليمي المشهور عنها خطءاً - فهل

يستطيع أحدٌ أن يدعي أن يزول المرض والإعاقة والفقر زوالاً تاماً من أي مجتمع على وجه الأرض. وإذا كانت الدُوَل - التي تدعي أنها متقدمة في خدماتها العامة - تحرص على ألا تنسى هذه الفئات بأن تخصص لها خدمة متميزة مثلها مثل غيرها، أوليس هذا ما حَرَصَ عليه الإسلام في الأميين من أبنائه الذين يشق عليهم أن يتكلفوا حساب الفلك حتى يعلموا متى يصومون ويفرحون بعيدهم.

فإن قيل: إن الأمر قد اختلف، وتيسر الآن حساب الفلك، وعلى الذين لا يعلمون أن يسألوا الخبراء في ذلك، كما قال الله تعالى "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"(النحل: ٤٣)،

قلنا: لا يوجد خبير واحد من أهل الفلك، **ولن يوجد**، يستطيع أن يقول للناس – ويستدل من ذلك بحساباته اليقينية – **[أن الهلال الجديد سيبدأ رؤيته حتماً، بأي وسيلة تصل آنياً إلى عين الإنسان، وفي أول لحظة له بعد ميلاده، في الوقت كذا، وبعين الوقت تعيينا تاماً، ويطابق ذلك الواقع التجريبي.][lxxviii]** وسوف ندلل على ذلك في المقال التالي إن شاء الله.

الشكل (٤) السابق، كان محاولة منا لنمذجة تصويرية لحال الأمية التعليمية في أي مجتمع، والخروج منها بمثال تجريبي كَمّي من الفيزياء الكلاسيكية. ولا يجب اعتبار أن هذه النمذجة يقينية، ولكنها تقريبية فقط لحمل القارئ على فهم مرادنا من استحالة زوال الأمية، ورؤية الصورة رؤية كمّية.

أما المعادلة الرياضية التي استخدمناها لرسم هذه المنحنيات الرياضية فهي معادلة حقيقية. وصيغتها التي استخدمناها كانت كالآتي[lxxix]:

ن :أي القيمة على المحور الصادي= ١/ (١+(دالة أسية طبيعية (المتغير السيني - ١)/درجة الاستثارة التعليمية))

وخلاصة هذا الوجه من وجوه الأمية أن أي مجتمع مهما بلغت مستويات تعلم أفراده، فلا بد حتماً أن تتواجد فيه فئة من الأميين، وهذا يتوافق تماماً مع قول الله تعالى "وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ"(البقرة: ٧٨)، أي أن أهل الكتاب منهم لا-أميين، ومنهم أميين.

الوجه الرابع: النبي الأمي، الذي حمل بين جنبيه فضائل الأمية، وفضائل تعليم الله سبحانه له على التخصيص.

ذكرنا أعلى رأْي ماسينون – المستشرق الشهير[lxxx] - في ثقافة "الأمي" حين قال: "شهادة الأمي شيء أصح لأنه يحكي ما

يحس بدون إخفاء وبدون قصد. أما الأديب (يقصد غير الأمي وصاحب الفكر) فهو صاحب نظريات عقلية يقصد في حكاياته كلها تحقيق ما تَوَهَّم: النظريات عنده في مقام أرفع من العمليات، والأفكار أرفع من الأفعال."

وقلنا: أن الأمية ليست الجهل، وإن لم يحفظ أهلها العلم بعد، وليست الضلال وإن كان في أصحابها شيء من الغفلة البريئة من التذاكي، بل هي الذكاء الفطري، والحدس التلقائي، والعفوية الندية، مع حنكة فطرية من تجارب الحياة بألوانها، والناس بمعادنهم، وعلم عفوي لا عصبية فيه، ولا فرح ولا غرور ولا زهو ولا تحيز، ولا تكلُّف[lxxxi].

وفرقنا أعلى بين الأُمّي وغيره - ممن لا يكتسب معرفة نظامية صحيحة - تمييزاً دقيقاً يرفع بقدر الأمي وبراءته الأصلية وأخلاقه – ليس فقط فوق أمثال هؤلاء - بل لا يكتمل علم عالم إلا إذا حافظ على تلك الأخلاق والفضائل، لهذا نقرأ لأبي حامد الغزالي يقول في المستصفى[lxxxii]: " يجب على المجتهد في كل مسألة أن يرد نظره إلى النفي الأصلي قبل ورود الشرع ثم يبحث عن الأدلة السمعية"، ويقصد بـ "النفي الأصلي": نفي العلم بوجود حكم سابق بالمسألة المطلوب إيجاد حكم لها، ... ونتساءل: هل هذا إلاّ "الأميَّة" بالمسألة؟

ونُسب إلى ديكارت أنه استحدث منهجاً جديداً في البحث عن حقائق الأشياء في بدايات العصر الحديث، وفيه أن "القاعدة الأساسية في هذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعرفه، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً"[lxxxiii]. ... ولا أدري، هل يختلف هذا المنهج عما قاله الغزالي (توفي ١١١١م) قبل ديكارت (توفي ١٦٥٠م)؟! .... وهل هذا المنهج الغزالي الديكارتي شيء آخر غير "أمِّية معرفية منهجية" تمثل "الأمّية" فيها مرحلة فكرية يخلص بها المفكر من رواسب الفكر التقليدي للفصل بين غثه وسمينه. وهل هذا أيضاً شيء آخر غير ما انتهجه الغزالي وقال فيه[lxxxiv]: "من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر، بقي في العمى والضلال."؟ .. نعوذ بالله من ذلك.

هذه المعاني التي التقطها ماسينون، والتي انتبه إليها الغزالي وديكارت، تدل على براعة في الفهم، ووقوف على مناط المعاني في تعلقها بالألفاظ. ومَنْ مِنّا لم يلاحظ تعنت المتعلم المدني في تغيير أفكاره التي اكتسبها طوال حياته من تعليمه الذي تشكلت به شخصيته. أفلا يكون الأمي أفضل منه لخلوه من هذه العوائق الفكرية. لا إنكار هنا على مبدأ التعلم، ولكن الإنكار على ما يلحقه التعلم المدني من اعتقادات فاسدة، لا أصل لها، تلتبس بالظاهر الصحيح من مادة التعلم، ولا ينتبه لها المتعلم. ثم تكون هذه الاعتقادات عائقاً أمام قبول المتعلم تصحيح اعتقاداته، ... لماذا؟ لأنه يعتز بما تعلّم، ويخشى أن يفقد مزية ترتبط بقيمته العلمية، ففي فقدها ربما هدم لكيانه العلمي! ولعمره الأدبي! فكيف يَدَع أي فكرٍ مُدَّعَى أن يفعل به ذلك؟! فيجنح إلى الرفض

قبل الفحص، والأمان الموهوم قبل المخاطرة بالتعرض لأفكار قد تضره هذا الضرر البليغ حتى وإن نفعته. ألا نشتم في ذلك رائحة قول القائلين المحرضين على رفض الإسلام من الذين عادوا الإسلام في قريش: "إن محمداً قد سفه أحلامكم"، ألم تكن من حججهم أن دعوة محمد تهدم كيانهم الفكري ومعتقد آبائهم. بلى إنها نفس المناعة الحمقاء واللدد الجاهل عينه. إن الحرص على المكتسبات الاعتقادية والفكرية والكيان الشخصي عند مثل هؤلاء كانت أغلى من فكرة جديدة صحيحة. وهؤلاء هم الذين وصفهم الله تعالى بأنهم كذَّبوا بالحسنى، وقال سبحانه "وَأَمَّا مَنْ .. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى"(الليل:٨-١٠)، والتكذيب بالحسنى هو التكذيب من أقصر طريق، بلا مراجعة ولا تحقيق، أمَا كانت الأمّية خيرٌ للمكذبين بالحسنى مما صبغهم به علمهم الموروث من غرور وعناد؟! أي والله إنها الأمية العذبة تترك المرء بريئاً من عصبيات الأفكار، وزهو الفهم به والتعالي. غير أن العالِم إذا استطاع أن يجمع بين علمه وبين أخلاق أمّيته، فيعود قبل نومه إلى ربه مُقِرّاً بأمّيته سائلاً أن يهبه الفهم ومزيداً من العلم[lxxxv]، فهو الذي جمع طرفي الخير جميعاً.

وأخيراً: هل الأمية – بمعنى العودة إلى النفي الأصلي كما قال الغزالي - شيء غير شهادة الإسلام الكبرى: "**لَا إِلَهَ** (أي كفرت بكل آلهة الأرض والسماء المزعومة في صورة كانت أو في فكرة) **إِلَّا اللَّهُ** (أي: لا أُقِرّ إلا به سبحانه وما كان منه خالصاً مخلصاً)". فأي أمية وبراءة أنقى وأسطع من ذلك للتخلص من زَبَد الدنيا وغبار الأفكار[lxxxvi].

هذا هو الوجه البراق للأمية، أخلاق فطرية، وبراءة أصيلة، كامنة فيها كبراءة الأطفال، وما "النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ" صلى الله عليه وسلم إلا النبي الذي تحلّى بهذه الأخلاق، ولم يتعلم التعليم الدنيوي، فيحمل بين جنبيه من شره، من مثل ما يحمله أهله مع خيره. فاختار الله له أن لا يتعلم إلا منه سبحانه[lxxxvii]، خيرٌ وافر، وصدقٌ خالص.

- وقد يتعجب بعض القراء ويتساءلوا: وهل في العلم من شر؟ أوليس العلم كله خير؟ أوليس العلم يتناول الجانب الموضوعي والصدق والحقيقة في الأشياء التي هي موضوع العلم ؟

- الإجابة المفجعة والمفاجئة لنا جميعاً: هي أن في العلم – وبحكم أنه صناعة بشرية - بعض الشر، وفيه التحيز، وفيه عدم الموضوعية، وربما أكثر من ذلك، ولنطَّلِع على شيء من ذلك في الفقرة التالية[lxxxviii]:

---

[i] "أتوقيت وتوقيت، أأعجمي وعربي"، http://www.almultaka.net/Writer.php?writer=١١٧

[ii] الحسن ابن الهيثم: "المناظر"، ص٢، نسخة إلكترونية.

[iii] صحيح البخاري.

[iv] صحيح البخاري.

[v] تأتي على سبعة معان: (التحريم، الكراهة، الدعاء، الإرشاد، التحقير، بيان العاقبة، اليأس)(الغزالي، المستصفى في أصول الفقه، ص٢٠٤-٢٠٥)

[vi] سنناقش في المقال التالي بإذن الله لجوء بعض مؤيدي الحساب الفلكي والاستغناء به عن الرؤية، إلى الحديث "فإن غُمّ عليكم فاقدروا له"، ومعناه في الثقافة اللغوية العربية الأولى، وكيف أنه لا يُسعِفُهم في دعواهم، وسنقصر هذا المقال فقط على مسألة "الأمية".

[vii] أحمد محمد شاكر، "أوائل الشهور العربية: هل يجوز شرعاً إثباتها بالحساب الفلكي؟"، رسالة كتبها ١٣ فبراير ١٩٣٩هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٤-١٥. وقد أخذ بهذه الفتوى عدد من مؤيدي الحساب الفلكي وما زالوا إلى يومنا هذا، رغم ما يقال عن أنه ربما تراجع عنها.

[viii] انتقد حمزة يوسف هانسن (الأمريكي المسلم) هذه العبارة للشيخ أحمد شاكر نقداً لاذعاً وقال: [يوجد بهذه العبارة أخطاء شنيعة من الممكن أن تضل الناس، وأول هذه الأخطاء أن الشيخ - أحمد شاكر - استخدم واحدة من أدق المبادئ الأصولية – يقصد القياس الفقهي- بدون أي ضبط، وتلك التي تخطئ التزام الرؤية بعد الخروج من الأمية حسبما تفيد العبارة] (Hamza Yufuf, Caesarean Moon Births: Calculations, Moon Sighting, and the Prophetic Way, Zaytuna Institute, USA, ٢٠٠٧، ٤٩P.)

[ix] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، دار المعرفة - بيروت ، ١٣٧٩، ١٢٧/٤.

[x] قيل: [أصبح علم الفلك في مجال حساب حركة القمر والأرض علماً قطعياً.](شرف القضاة، ثبوت الشهر القمري بين الحديث النبوي والعلم الحديث، ص١١)

[xi] قيل: [يتبين من خلال مناقشة الرأيين أن الرأي الثاني الذي يأخذ بالحساب والتقدير هو الأرجح في عصرنا بعد أن زالت عن الأمة الإسلامية أميتها](شرف القضاة، ثبوت الشهر القمري بين الحديث النبوي والعلم الحديث، ص١١)

[xii] قيل: [قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، هو وصف للحال في ذلك الزمان، وليس صفة لازمة للأمة الإسلامية، بل على العكس من ذلك تماماً، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحض المسلمين على التعلم ...](حسين كمال الدين، "دورتا الشمس والقمر، وتعيين أوائل الشهور العربية باستعمال الحساب"، دار الفكر العربي، ١٩٩٦، ص ٣٣)

[xiii] قال ابن تيمية: [لما بُعث فيهم (أي رسول الله صلى الله عليه وسلم) ووجب عليهم اتباع ما جاء به من الكتاب وتدبره وعقله والعمل به .... صاروا أهل كتاب وعلم، بل صاروا أعلم الخلق وأفضلهم في العلوم النافعة، وزالت عنهم الأمية المذمومة الناقصة، وهي عدم العلم والكتاب المنزل. ...](مجموع الفتاوى الكبرى، ١٦٨/٢٥-١٦٩)

[xiv] يقول ابن خلدون: [ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب، وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعةً وعلماً فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء. وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين: طريقة أهل الرأي والقياس](المقدمة، الفصل السابع، علم الفقه وما يتبعه من الفرائض، ص٢٥٦)

[xv] قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: [من زعم من متأخري الفقهاء ، كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه ، أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ، فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري : (ثم أخذ فكتب) ، ولذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب ، على من قال بقول الباجي ، وتبرءوا منه ، وأنشدوا في ذلك أقوالا، وخطبوا في محافلهم، وإنما أراد الرجل - يقصد الباجي - أنه كتب ذلك على وجه المعجزة ، لا أنه كان يحسن الكتابة].

وقد روى الحافظ ابن حجر في فتح الباري قصة الباجي، وما ذهب إليه، وما كان له مع العلماء في زمنه، بسبب ما قاله، فقال : [وقد تمسك بظاهر هذه الرواية - أي رواية البخاري - أبو الوليد الباجي، فادعى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كتب بيده، بعد أن لم يكن يحسن يكتب، فشنع عليه علماء الأندلس في زمانه، ورموه بالزندقة، وأن الذي قاله يخالف القرآن، حتى قال قائلهم :

برئت ممن شرى دنيا بآخرة وقال إن رسول الله قد كتبا

فجمعهم الأمير، فاستظهر الباجي عليهم بما لديه من المعرفة، وقال للأمير: هذا لا ينافي القرآن، بل يؤخذ من مفهوم القرآن؛ لأنه

قيد النفي بما قبل ورود القرآن، فقال الله تعالى: سورة العنكبوت الآية ٤٨ "وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ" وبعد أن تحققت أميته، وتقررت بذلك معجزته، وأمن الارتياب في ذلك، لا مانع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك، من غير تعليم، فتكون معجزة أخرى.] ثم قال ابن حجر مخففا من شدة وطء الحملة على الباجي وجماعته: [وعلى تقدير حمله - أي حديث البخاري - على ظاهره، فلا يلزم من كتابة اسمه الشريف في ذلك اليوم - وهو لا يحسن الكتابة - أن يصير عالما بالكتابة، ويخرج من كونه أميا، فإن كثيرا ممن لا يحسن الكتابة يعرف تصور بعض الكلمات، ويحسن وضعها بيده، وخصوصا الأسماء، ولا يخرج بذلك عن كونه أميا، ككثير من الملوك، ويحتمل أن يكون جرت يده بالكتابة حينئذ - وهو لا يحسنها - فخرج المكتوب على وفق المراد، فيكون معجزة أخرى، في ذلك الوقت خاصة، ولا يخرج بذلك عن كونه أميا، وبهذا أجاب أبو جعفر السمناني، وتبعه ابن الجوزي]. ثم رد على السهيلي قوله ، بأن جريان الكتابة على يده - عليه الصلاة والسلام - في ذلك الوقت فقط ، يعارض القول بمعجزته - صلى الله عليه وسلم - ، المتمثلة في أميته :
[وفي (دعوى أن كتابة اسمه الشريف فقط على هذه الصورة تستلزم مناقضة المعجزة ، وتثبت كونه غير أمي) نظر كبير] فتح الباري ، ٧ ٥٧٥- ٥٧٦.

[xvi] محمد بن صبيان الجهني، "الحساب الفلكي بين القطيعة والاضطراب"، ضمن "مقالات حول الحساب الفلكي"، نسخة إلكترونية.

[xvii] مصادر الشعر الجاهلي: ناصر الدين الأسد، نسخة إلكترونية.

[xviii] محمد عابد الجابري، "مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول: في التعريف بالقرآن"، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ص ٨٢.

[xix] الجابري، المرجع السابق، نفس الصفحة.

[xx] لويس عوض، "مقدمة في فقه اللغة العربية"، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦، ص١٤٧-١٤٨

[xxi] يتطلب هذا الكلام مراجعة وتحقيقه كما جاء في "النحو الوافي" لعباس حسن (ج٤، ص٧٤٢)، أن ما قيل أعلى: [هو المذهب البصري الشائع. أما الكوفيون فيجيزون النسب إلى جمع التكسير الباقي على جمعيته مطلقا (أي: سواء أكن اللبس مأمونا عند النسب لمفرده؛ "نحو أنهاري، في النسبة إلى: نهر" أم غير مأمون، "نحو: جزائري، في النسبة إلى بلاد "الجزائر"

المعروفة") وحجتهم: أن السماع الكثير يؤيد دعواهم وقد نقلوا من أمثلته عشرات وأن النسب إلى المفرد يوقع في اللبس كثيرا؛ ورأيهم حسن مفيد. وقد ارتضاه المجمع اللغوي القاهري. فعندنا مذهبان صحيحان؛ لا يفضل أحدهما الآخر في سياق معين إلا بالوضوح والبعد عن اللبس؛ فإذا أمن اللبس فالأفضل محاكاة المذهب الشائع؛ لأنه أكثر في الوارد الفصيح.]، وفي الحاشية، جاء في حيثيات قرار مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دور انعقاده الثالث ما نصه: [...أهل الكوفة يخالفون أهل البصرة في مسألة النسبة إلى الجمع يرده إلى واحده؛ فيجيزون أن ينسب إلى جمع التكسير بلا رد إلى واحدة؛ فلا يغير الوضع. وهذا هو الأصل العام، وفيه إبداء لإرادة المتكلم؛ فيتميز المنسوب إلى الجمع من المنسوب إلى واحدة؛ فيقال مثلا في النسبة إلى الملوك: الملوكي، وفي النسبة إلى الدول: الدُّوَلي، وفي النسبة إلى الكتاب: الكتابي، فلا تستوي النسبة إلى الجمع والنسبة إلى واحدة."ولقد كثر النسب إلى الجمع فيما مضى وغلب حتى جرى مجرى الأعلام؛ فمثلا قيل: الدوانيقي، لأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي، وقيل لغيره: الكرابيسي، والأنماطي، والحاملي، والثعالبي، والجواليقي،... واستمر النسب إلى الجمع على هذا النحو إلى الآن. والمجمع إنما ينسب إلى لفظ جمع التكسير عند الحاجة؛ كالتمييز بين المنسوب إلى الواحد، والمنسوب إلى الجمع..."]

[xxii] لويس عوض، هامش (١) ص ١٤٧.

[xxiii] محمد أبو القاسم حاج حمد، "جدلية الغيب والإنسان والطبيعة – العالمية الإسلامية الثانية"، طبعة ثالثة للعالمية الإسلامية، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٤م، ص١٢٦ وما بعدها. أو الطبعة الأولى، ص ١٦٠؛ و"منهجية القرآن المعرفية – أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية"، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٣م، ص٢١٣-٢١٤.

[xxiv] " العالمية الإسلامية الثانية "، ط٣ ، ص ١٧.

[xxv] السابق، ص ٨.

[xxvi] السابق، ص ٨-٩.

[xxvii] في تقديمه للطبعة الثانية من كتاب العالمية الإسلامية الثانية لحاج حمد، المرجع السابق ص ٢٢.

[xxviii] ابراهيم أنيس، "دلالة الألفاظ"، دار المعارف، ط. سادسة، ١٩٨٦، ص ١٨٧-١٨٨.

[xxix] جاء في العهد القديم، على لسان موسى عليه السلام:

The LORD thy God will raise up unto thee a Prophet from the midst of thee, of thy] The Bible, King) .(١٨:١٥brethren, like unto me; unto him ye shall hearken] (Deuteronomy (hearken = listen attentively) (٣٣٦ditions, p.James Versoin, Coradella Collegiate Bookshelf E

وجاء أيضاً أن الله تعالى يقول لموسى:

I will raise them up a Prophet from among their brethren, like unto thee, and will put my] d it words in his mouth; and he shall speak unto them all that I shall command him. An shall come to pass, that whosoever will not hearken unto my words which he shall speak in (٣٣٧The Bible, p.) (١٩-١٨:١٨my name, I will require it of him.](Deuteronomy

وجاء في العهد الجديد:

A prophet shall the Lord your ،This is that Moses, which said unto the children of Israel] The) (٧:٣٧God raise up unto you of your brethren, like unto me; him shall ye hear.](Acts (١١٨١Bible, p.

[xxx] في بحثنا عن معنى كلمة brethren وجدنا أنها تُطلق على العامة من الإخوان المنتسبين إلى ملة دينية مشتركة (http://wordnetweb.princeton.edu/perl/webwn?s=brethren) – والراجح أنها جاءت في النصوص السابقة بمعنى حنيفية إبراهيم عليه السلام - ونظن أن هذا اللفظ – إن صحت ترجمته عما جاء بالتوراة الأصلية- تحتمل معنى "الأميين" أيضاً، فيكون قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل أن النبي المبعوث سيكون منتسباً إلى your brethren، أي: الأميين (أي عوام) إخوانكم في حنيفية إبراهيم، وهؤلاء ليسوا إلا العرب المنتسبين إلى إسماعيل عليه السلام.

[xxxi] تكرر ذلك في عدد من كتب ابن تيمية في حجه ضد المخالفين لصريح المعقول، مثال لذلك: (مجموع الفتاوى، ٩/٣) حيث قال ذماً في منهج المخالفين: [لو أمعنوا النظر لسوّوا بين المتماثلات، وفرّقوا بين المختلفات.]

[xxxii] صحيح البخاري.

[xxxiii] صحيح البخاري.

[xxxiv] لمن أراد حداً (تعريفاً مانعاً جامعاً) لـ"الوجوه والنظائر" نسوق له ما قاله ابن الجوزي، قال (في كتابه "نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر"، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤، ص٨٣): [أعلم أن معنى الوجوه والنظائر أن تكون الكلمة واحدة، ذُكرت في مواضع من القرآن على لفظ واحد، وحركة واحدة، وأريد بكل مكان معنى غير الآخر، فلفظ كل كلمة ذُكرت في موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر، وتفسير كل كلمة بمعنى غير معنى الآخرى هو الوجوه .فإذاً النظائر: اسم للألفاظ، والوجوه: اسم للمعاني، فهذا الأصل في وضع كتب الوجوه والنظائر، والذي أراد العلماء بوضع كتب الوجوه والنظائر أن يُعرّفوا السامع لهذه النظائر أن معانيها تختلف، وأنه ليس المراد بهذه اللفظة ما أريد بالأخرى.]

[xxxv] الحسين بن محمد الدامغاني، "قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنظائر"، تحقيق عبدالعزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥، ص١١٧، بتصرف قليل.

[xxxvi] المرجع السابق، ص ١١٥.

[xxxvii] ابن قيم الجوزية، "بدائع الفوائد"، ج٢، ص٣٠١، تحقيق بشير محمد عيون، ط١، مكتبة البيان، بيروت، ١٩٩٤، (نقلاً عن: سلوى محمد العوا، "الوجوه والنظائر في القرآن الكريم"، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٦٣)

[xxxviii] لا نرى أي ضرورة للتعقيب على كلام ابن القيم بتفسير أو توضيح، فقد أغنانا بكلامه النفيس عن أي زيادة، كما أنه طبقه على عدة أمثلة في كتابه (بدائع الفوائد) في أكثر من خمس عشر موضعاً. ولا حاجة بنا أيضاً إلى استقصاء دور السياق في الأدبيات الحديثة كما جاء بها John Rupert Firth أو غيره.

[xxxix] قيل: [إذا كان محمد - صلى الله عليه وسلم - نبيا أميا، بنصوص الكتاب والسنة وانعقاد الإجماع وشهادة واقع الحال، فإن أمته - صلى الله عليه وسلم -كانت أمة أمية ولا تزال ، وهذا وصفها في كتاب الله - عز وجل - ، وفي سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.](مصطفى بن عيد الصياصنة، الأمية في المنظور الإسلامي، مجلة البحوث الإسلامية، جزء ٤٥، ص١٢١، جمادى الثاني/١٤١٦هـ)

[xl] "اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة"، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري. وللحديث رواية في الترمذي.

[xli] أبي إسحاق الشاطبي، "الموافقات في أصول الشريعة"، دار المعرفة، بيروت، ٦٩/٢. وقد بيّن الشيخ عبدالله دراز هذا

المعنى بجلاء حين أرفق تعليقه على هذه العبارة للشاطبي وقال: [أي: لا تحتاج (الأمة) في فهمها (للشريعة) وتعرف أوامرها ونواهيها إلى التغلغل في العلوم الكونية والرياضيات وما إلى ذلك، والحكمة في ذلك: أولا: أن من باشر تلقيها من الرسول صلى الله عليه وسلم أميون على الفطرة كما سيشرحه المؤلف. ثانيا: فإنها لو لم تكن كذلك، لما وسعت جمهور الخلق من عرب وغيرهم، فإنه كان يصعب على الجمهور الامتثال لأوامرها ونواهيها المحتاجة إلى وسائل علمية لفهمها أولا، ثم تطبيقها ثانيا، وكلاهما غير ميسور لجمهور الناس المرسل إليهم من عرب وغيرهم، وهذا كله فيما يتعلق بأحكام التكليف، لأنه عام يجب أن يفهمه العرب والجمهور ليمكن الامتثال، أما الأسرار والحكم والمواعظ والعبر، فمنها ما يدق عن فهم الجمهور ويتناول بعض الخواص منه شيئا فشيئا بحسب ما يسره الله لهم وما يلهمهم به، وذلك هو الواقع لمن تتبع الناظرين في كلام الله تعالى على مر العصور، يفتح على هذا بشيء ولم يفتح به على الآخر، وإذا عرض على الآخرة أقره على أنه ليست كل الأحكام التكليفية التي جاءت في الكتاب والسنة مبذولة ومكشوفة للجمهور، وإلا لما كان هناك خواص مجتهدون وغيرهم مقلدون حتى في عصر الصحابة، وكل ما يؤخذ من مثل حديث "نحن أمة أمية" ما ذكرناه على أن التكاليف لا تتوقف في امتثالها على وسائل علمية وعلوم كونية وهكذا.]

[xlii] Gerald Jay et al, Structure and Interpretation of Classical Mechanics, MIT Press, ٢٠٠٠، 8P.

[xliii] Ibid, pp. 1-١١٠.

[xliv] عبد الرحمن الجبرتي، " عجائب الآثار في التراجم والأخبار " ، الجزء الثاني.

[xlv] "نابليون وحقيقة اعتناقه الإسلام في مصر"، سمير عطا، http://www.balagh.com/mosoa/garb/rm٠pqlx٨.htm، نقلاً عن: مجلة الفيصل /العدد ٢٩٤.

[xlvi] متفق عليه.

[xlvii] قيل أن هذه القصة الشهيرة تعد من قبيل الأسطورة، A. M. Alioto, A History of Western Science, (Prentice Hall, -Englewood Cliffs, NJ: ١٩٨٧)، p.٤٤. غير أن Arielle Saiber في كتابها Giordano Bruno and the Geometry of language صفحة ١٢، و ٣٢ قد أحال هذه العبارة إلى Plutarch, Convivialium Disputationum, VIII.٢.. ومن المشهور عن أفلاطون تزكيته الشديدة للهندسة بما يرجح معنى الخبر

حتى وإن لم يتحقق عيانياً.

[xlviii] أفاد ديوجين أن علاقة صداقة جمعت بين بوليكراتيس من جزيرة ساموس – والتي كان فيثاغورث أحد مواطنيها - وبين الملك أماسيس ملك مصر، وأن بوليكراتيس سلم فيثاغورث رسائل – أي خطابات توصية Recommendation Letters- ليقدم بها نفسه إلى الملك، الذي قدمه بدوره إلى الكهنة، أولاً إلى كاهن هليوبوليس، ثم إلى كاهن ممفيس، وأخيراً إلى كهنة طيبة. وقد أهدى فيثاغورث إلى كل منهم كأساً ذهبية. (أنظر: كـ٣ ص ١٢، ٣٤ كـ٨ ص٣، وانظر أيضاً Pliny N. H. ٣٦,٩سجله تورنير). وقيل لنا أكثر من ذلك على لسان هيرودوت وجابلونسك وبليني أنه بعد اختبارات عديدة من بينها الختان الذي فرضه عليه الكهنة المصريين أجيز له أخيراً الانضمام إلى جميع أسرارهم. وتعلم أيضاً مذهب التقمص الروحي، وهو مذهب لم يكن له من قبل أي أثر في الديانة اليونانية. وعرفنا كذلك أن معارفه في مجال الطب والتزامه بنظام غذائي له قواعد صارمة، كل هذا مايزه عن غيره باعتبار أنها أمور تخص مصر الذي بلغ الطب فيها شأواً عظيما لا يدانيه أي مكان آخر. واكتسب معلومات في مجال الهندسة تتطابق مع حقيقة مؤكدة أن مصر مهد ذلك العلم. ولدينا زيادة على ذلك آراء وأخبار بلوتارك وديميتريوس وأنتستين الذين قالوا أن فيثاغورث أسس علم الرياضيات بين اليونانيين وأنه قدم فدية إلى ربات الفنون عندما شرح له الكهنة خصائص المثلث قائم الزاوية. (أنظر [٣٦] صفحة ١٠٨٩، [٣٧] صفحة ٣٦) وتثقف فيثاغورث كذلك في الموسيقى على أيدي الكهنة المصريين (مجلد ١ صفحة ٢٣٤)](التراث المسروق، تأليف: جورج جي إم جيمس، ترجمة شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٥٥)

[xlix] قالت زيجرد هونكه (شمس العرب تسطع على الغرب، طبعة ٨، ص٣٩٩): [كان طاليس وفيثاغورث ورثة للمصريين والبابليين، نقلا عنهم ما خلفوه من قواعد في الرياضيات والفلك، فهما وريثان لحضارات الشرق القديم.]

[l] ولهذا اشتُق علم "الهندسة" من "آليات حسابات مساحات الأراضي الزراعية التي كان يقوم بها المصريون في دلتا النيل، وهي الآليات التي أقام عليها إقليدس كتابه المسمى بـ "المبادئ" في الإسكندرية، وكان لأهل العراق فيما بين النهرين آليات شبيهة، ونقصد بذلك كلمة geometry، ومعناها الحرفي الحوسبة metric الأرضية geo، وهذان هما جزئي كلمة geometry، التي نسى الناس أصلها وقصة نشأتها، وقام أصحاب الترجمات بترجمتها إلى "هندسة"، وهو لفظ فارسي! فتجردت من جذورها، وظن الناس أنها صناعة يونانية

[li] محمد بن صبيان الجهني، "الحساب الفلكي بين القطيعة والاضطراب"، ضمن "مقالات حول الحساب الفلكي"، مكتبة

الشاملة الإلكترونية.

[lii] المؤشر indicator في علوم الاجتماع والإنسانيات هو مقياس كمّي يتخذه الباحث، ليقارن به بين مستويات الظاهرة محل الدراسة. والحاصل أن المؤسسات المعنية بالشأن التربوي قد اتخذت التعليم النظامي وما حصّله الإنسان فيه، كمؤشر على ترقّيه على المستوى التعليمي. وكان أدنى مستويات هذا المؤشر هو حالة اللاّ تعليم الأولى، والتي كان فيها الإنسان في حُضن أمّه لتوّه. وتم تسمية هذه المرحلة بمرحلة "الأمية". لذا، فهذا التخصيص لمعنى "الأمية" طارئ على معنى الأمية العام، ويجب أن يُنتبه إليه على أنه معنى اصطلاحي تربوي، بخلاف المعنى اللغوي قبل التخصيص. كما أن التدوين المعجمي نفسه جاء بمثابة تدوين اصطلاحي قيّد حركة كثير من الألفاظ المشمولة والتي كانت أكثر حرية قبل تدوينها. وهذا جانب عظيم الأهمية يجب مراعاته في الاعتماد على المعاجم اللغوية بما فيها أمهات المعاجم العربية ذاتها. وتعتبر هذه الدراسة بجملتها محاولة لتخطّي حدود التعريفات المعجمية للفظ واحد هو "الأمية"!

[liii] في الندوة الثانية للتراث التي أقامتها إدارة الشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف القطرية مساء الإثنين ٥-٥-٢٠٠٨ بقاعة المحاضرات بإدارة الدعوة، وخصصت الندوة للاحتفال بانتهاء تحقيق أحد أهم مراجع فقه الإمام الشافعي وهو كتاب "نهاية المطلب في دراية المذهب" تأليف إمام الحرمين الجويني ويقع في (٢١) مجلداً، تحقيق الكتاب د. عبد العظيم الديب.

temp&١version=&٥٩٢٤item_no=&٢http://www.qaradawi.net/site/topics/article.asp?cu_no=
١١٤parent_id=&١١٦late_id=

[liv] لويس ماسينون، "محاضرات في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية"، ألقيت في الفترة (٢٥ نوفمبر ١٩١٢ إلى ٢٤ إبريل ١٩١٣) ، تصدير إبراهيم مدكور، تحقيق وتقديم وحواشي: زينب الخضيري، نشر: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٨٣، (ملاحظة لماسينون: "قام أكثر هذا العمل – يقصد: المحاضرات ١-٣٤ - على الأصل المستنسخ من عمل الطالب الفاضل توفيق أفندي مرعشلي"). وقد ألقيت هذه المحاضرات في الجامعة المصرية القديمة على طلاب منهم: منصور فهمي، طه حسين، علي العناني، أحمد ضيف، وكان ماسينون وقتها شاباً لم يبلغ الثلاثين!

[lv] المرجع السابق، المحاضرة الأربعون والأخيرة، ص ٢٠٨.

[lvi] جاء في صحيح ابن خزيمة: [في قوله صلى الله عليه و سلم : "من قام مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلته" دلالة

على أن القارئ و الأمي إذا قاما مع الإمام إلى الفراغ من صلاته كتب له قيام ليلته.]، وجاء في غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، لأحمد بن محمد الحموي قوله [لا يؤمُّ صاحب العذر الدائم الأصحاء ، ولا الأميُّ القارئ ، ولا الأخرسُ المتكلمَ ولا الأميَّ]، وجاء في مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٧٠/٢٥ قوله: [لا يصح اقتداء القارئ بالأمي . ويجوز أن يأتم الأمي بالأمي . ونحو ذلك من المسائل وغرضهم بالأمي هنا الذي لا يقرأ القراءة الواجبة سواء كان يكتب أو لا يكتب يحسب أو لا يحسب.]

[lvii] محمد الغزالي ، (١٤٠٠هـ) ، نظرية التربية الإسلامية للفرد والمجتمع ، ضمن بحوث ندوة خبراء أُسس التربية الإسلامية المنعقدة بجامعة أم القرى في مكة المكرمة خلال الفترة من ١١ – ١٦ جمادى الثاني ١٤٠٠هـ . مكة المكرمة : جامعة أم القرى ، مركز البحوث التربوية والنفسية. نقلاً عن: صالح علي أبو عراد، "التربية الإسلامية، المصطلح والمفهوم"، doc.١٧saaid.net/Doat/arrad/.١٤٢٦

[lviii] الأمثلة في كتاب الله تعالى عديدة، نذكر منها، في الكسور العددية: "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ"(المزمل:٢٠)، وفي المضاعفات العددية: "لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ"(النساء:١١)، و"مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا"(الأنعام:١٦٠)، وفي التوزيع العددي: "ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ .. وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ"(الأنعام:١٤٣-١٤٤)، وفي النسب العددية: "إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا"(الأنفال:٦٥)، وفي الجمع العددي "فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ"(البقرة:١٩٦)، والطرح العددي " فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا "(العنكبوت:١٤)، ورؤوس الأعداد على تتابعها؛ من الآحادِ مثل: "أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ"(القمر:٢٤)، " وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ "(النحل:٥١)، و"ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا"(مريم:١٠)، و"أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ"(النور:٦)، ..إلخ، والعشراتِ مثل: "إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ"(المائدة:٨٩)، و"عِشْرُونَ صَابِرُونَ"(الأنفال:٦٥)، و"ثَلَاثُونَ شَهْرًا"(الأحقاف:١٥)، و "أَرْبَعِينَ لَيْلَةً"(البقرة:٥١)، و"خَمْسِينَ عَامًا "(العنكبوت:١٤)، و "سِتِّينَ مِسْكِينًا"(المجادلة:٤)، و"سَبْعِينَ رَجُلًا"(الأعراف:١٥٥)، و"ثَمَانِينَ جَلْدَةً"(النور:٤)، و"تِسْعُونَ نَعْجَةً "(ص:٢٣)، والمئات مثل: "بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ"(البقرة:٢٥٩)، "يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ"(الأنفال:٦٥)، و"ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ"(الكهف:٢٥)، والآلاف مثل: "لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ"(القدر:٣)، و"يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ"(الأنفال:٦٦)، و"يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ"(آل عمران:١٢٤)، وعشرات الآلاف مثل: "خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ"(المعارج:٤)، ومئات الآلاف مثل: "وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ"(الصافات:١٤٧)، وأخيراً، الأعداد التي لا نهاية لها مثل: "وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"(لقمان:٢٧)

[lix] "الكتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة – تصنيف الشيخ الأجل أبي عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي"، باب الوصايا والمواريث، ص.٦٥-١٢٢، في الجهة العربية من الكتاب، وهو متوفر إلكترونيا في مجلد واحد (عربي-إنجليزي) بعنوان: The algebra of Mohammed ben Musa, dited and translated by: Frederic Rosen, London,) ١٨٣١fund, printed for the oriental translation على موقع أرشيف الإنترنت على هذه الرابطة http://www.archive.org/details/algebraofmohamme٠٠khuwrich.

[lx] يمكن العثور على مصادر عديدة جداً تؤكد التشابه الكبير بين النظام التعليمي الراهن، وماكان من تفعيل المسلمين للآيات التي نحن بصددها في مسألة التعليم، وعموم المدارس بإسم مكتب وكُتّاب ومدرسة. أنظر على سبيل المثال: History of Civilizations of Central Asia- Vol.٤- Part II, PP.٣٣-٤٣، UNESCO Publishing٢٠٠٠،

[lxi] (القانون في الطب، ج١ ص ١٥٧، تحت "عنوان تدبير الأطفال إذا انتقلوا إلى سن الصبا") نقلاً عن (الطفولة في الإسلام – مكانتها – وأسس تربية الطفل، حسن ملا عثمان، دار المريخ، ١٩٨٢، ص٩١)

[lxii] أحكام القرآن لابن العربي، ٢٩١/٢.

[lxiii] الطبقات الكبرى لابن سعد، الجزء الخامس في (طبقات الأنصار).

[lxiv] أحمد الأحمدين، "الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية"، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٠٦.

[lxv] السابق، ص١٠٥.

[lxvi] واستكمالاً للحديث لما فيه من الفائدة: [قالت يا رسول الله: خويدمك، أدع الله له. قال: اللهم أكثر ماله وولده وأطل عمره وأغفر ذنبه قال أنس فقد دَفَنت من صلبي مائة غير اثنين أو قال مائة واثنين وإن ثمرتي لتحمل في السنة مرتين ولقد بقيت حتى سئمت الحياة وأنا أرجو الرابعة]

[lxvii] طبقات ابن سعد، الموضع السابق.

[lxviii] "الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية"، مرجع سابق.

[lxix] السابق، ص ١٢٩. هذا بالإضافة إلى ما يزيد عن سبعة عشر مكياً ذكرهم البلاذُري في "فتوح البلدان"، الجزء الثالث، نسخة إلكترونية.

[lxx] سنن أبي داوود، باب "ما جاء في الشعر"، ضعّفه الألباني، غير أننا نستشهد بشرح المتن لغةً وكيف يجتمع العلم والجهل في نفس متعلم واحد.

[lxxi] ابن منظور، لسان العرب، مادة (جهل)

[lxxii] أبو البقاء الكفوي، "الكليّات"، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨، ص ٣٥٠.

[lxxiii] "It is better not to understand something true, than to understand something false". Source: http://en.wikiquote.org/wiki/Niels_Bohr. (Although, it is disputed whether it is his quote or someone else)

[lxxiv] الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٨٢.

[lxxv] صحيح مسلم.

[lxxvi] صحيح البخاري.

[lxxvii] أنظر في ذلك – على سبيل المثال - تقرير "التقرير العالمي لرصد التعليم للجميع" ٢٠٠٩، الصادر عن اليونسكو، ص ٢٤٤ وما بعدها، http://www.unesco.org/ar/efa-international-coordination/

[lxxviii] نأمل ممن سيعترض على هذه العبارة أن يراجعها مراجعة دقيقة لأننا سبكناها سبكاً يستحيل – في ترجيحنا- معه نقضها. وفي حالة محاولة نقضها، نأمل ممن سيغامر بذلك أن يصحب نقضه باستدلالات علمية موثقة وألا يكتفي بالقيل والقال، واتباع أقوال الخبراء، أو اتباع فتاوى تستبعد الرؤية المنصوص عليها في الحديث الصحيح لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك على سبيل التأكد من حسابات الحاسبين ودعاوى المدعين بوقوع الرؤية التي يدعون حسابها يقيناً.

[lxxix] تُسمّى هذه المعادلة (التوزيع الإحصائي لـ فيرمي-ديراك) Dirac Distribution-Fermi، أنظر على سبيل المثال: Encyclopedia of Condensed Matter Physics, edts: Bassani et al, Elsvier Academic Press, ٢٠٠٥، Vol. I, pp.٧٩..

[lxxx] وأستاذ عدد من مشاهير الفكر في مصر في بداية القرن العشرين كما سبقت الإشارة أعلى.

[lxxxi] قارن هذا الوصف "عدم التكلُّف"، مع وصف الله سبحانه لرسوله في قوله تعالى "وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ"(ص:٨٦)، ونقل الزمخشري في تفسيره لهذه الآية حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم – لم نستطع الوقوف على صحته – يقول فيه (ذمّاً لهذه الصفة): " للمتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه، ويتعاطى مالا ينال، ويقول فيما لا يعلم")، وجدير بالذكر أننا نلحظ هذه الصفات جميعاً فيمن يتداولون العلم!

[lxxxii] أبو حامد الغزالي، "المستصفي في أصول الفقه"، ص ٣٧٤.

[lxxxiii] أنظر: Rene Descartes, A Discourse on The Method, A New Translation by: Ian Maclean, Oxford University Press, USA, ٢٠٠٦، ص١٤ ، ١٧(قوانين التفكير الأربعة)، ومن الترجمات العربية للكتاب ."مقال عن المنهج"، رينيه ديكارت، ترجمة محمود الخضيري، تقديم عثمان أمين، هيئة الكتاب المصرية، ٢٠٠٠، صفحات ٨٨، ٩٧-٩٩ (قوانين التفكير الأربعة)، وانظر أيضاً: فلسفة ديكارت ومنهجه: دراسة تحليلية نقدية، محمدي فضل الله، دار الطليعة، بيروت، ط. ثالثة، ١٩٩٦.
وقد تذرع طه حسين في نقده للشعر الجاهلي بأنه من متبعي هذا المنهج ، أنظر: "في الشعر الجاهلي"، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسه، تونس، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٦م، ص٢٣.

[lxxxiv] أبو حامد الغزالي، ميزان العمل، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، ١٩٦٤، ص ٤٠٩. (آخر عبارة في متن الكتاب).

[lxxxv] أُثر عن ابن تيمية رحمه الله تعالى أنه قال: (ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم وأقول يا معلم آدم وابراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب [وأسأل الله وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني](ابن قيم الجوزية- إعلام الموقعين- نسخة إلكترونية)) (رسالة "رأس الحسين" لابن تيمية، نسخة إلكترونية)

[lxxxvi] ألا نرى في غُسْل الإسلام لمن أسلم لتوِّه طهارة بدنية ترافق طهارته الفكرية – أي النطق بالشهادة – فتنقيه مما علق بذهنه من أفكار واعتقادات فاسدة. ألا يكون الوضوء مع الصلاة أيضاً تجديداً لهذه الطهارة، مثلما أن الصلاة نفسها تجديداً معنوياً لتصحيح التوجيه القلبي والعقلي على نحو متتابع. ربما لا يعلم الكثيرون أن صواريخ الفضاء المنطلقة نحو أهداف بعينها – ومثلها الصواريخ الموجهة على الأرض والمسماة بصواريخ كروز – يجب أن يتم تصحيح مسارها على الدوام كي لا تضل طريقها عن وجهتها التي انطلقت من أجلها. وهذه لا تختلف - في غرض التصحيح - عن المسلم في متابعة صلواته إلى ربه، يصحح بها وجهته، فيظل على الطريق الحق.

[lxxxvii] سمعت الشيخ عبد الحميد كشك يرحمه الله، قال: [لماذا قدّر الله تعالى لنبيه محمداً أن يفقد أباه قبل أن يولد؟ - الإجابة هي: حتى لا ينشأ ويقول: أبي أبي، بل يقول: ربّي ربّي.] وهذا يترافق مع الحديث المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أدبني ربي وأحسن تأديبي]. قال الألباني: لا يعرف له إسناد ثابت، لكن المعنى صحيح، كما قال ابن تيمية في " المجموع " (٣٧٥/١٨)]

[lxxxviii] استفدنا في إعداد هذه الفقرة استفادة كبيرة من عدد من المحاضرات – مع تصرُّف واسع في الصياغة والإيجاز - وخاصة المحاضرة رقم ١٧ بعنوان "ثورة كيون: صورة العلم" "Kuhn's Revolutionary: Image of Science" من سلسلة محاضرات مرئية بعنوان "حروب العلم: ما الذي يعلمه العلماء وكيف يعلمون ما يعلمونه؟" "Science Wars- What Scientists Know and How They Know It؟"، ألقاها Stephen L. Goldman من جامعة Lehigh University.

http://www.teach١٢com/ttcx/coursedesclong.٢aspx?cid=١٢٣٥